أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشمس

مكية وهي ست عشرة آية مع البسملة وهي ركوع واحد

إنها سورة مكية؛ فقد روي عن ابن عباس أنها نزلت بمكة، وقد رُوي مثله عن ابن الزبير. وروى عقبة بن عامر أن النبي ﷺ أمرنا بقراءة سورتَي الشمس والضحى في صلاة الظهر (فتح البيان).. مما يعني أن على المرء أن لا يقرأ في صلاة الظهر سورًا طويلة، وأن لهاتين السورتين علاقة بوقت الظهر.

ويرى القس "ويري" (R. Wherry) أن النصف الأول من هذه السورة نزل في السنة الأولى من البعثة النبوية، أما نصفها الثاني ففي السنة الثالثة أو الرابعة، بدليل أن النصف الأخير منها يحتوي على أحداث معارضة الأنبياء، ولا يمكن أن يتطرق القرآن إلى هذا الموضوع إلا إذا كانت المعارضة العلنية المنظمة لمحمد في مكة قد بدأت فعلاً، وحيث إنها بدأت في السنة الرابعة من البعثة فثبت أن النصف الثاني من هذه السورة نزل في تلك الفترة. (تفسير "ويري" المجلد الرابع ص ٢٤٩)

وأقول لا شك أن هذه السورة نزلت في بداية البعثة، ومن الوارد جدّا أن تكون قد نزلت في السنة الأولى أو الثانية أو الثالثة أيضًا، ولكن قد أخطأ القسيس "ويري" في ظنه أنّ نصفها الأول نزل في السنة الأولى باعتبارها تتحدث -إجمالا- عن معارضة الأنبياء، بينما نزل نصفها الثاني فيما بعد في السنة الثالثة أو الرابعة؛ ذلك لأن الحديث عن معارضة الأنبياء وحده ليس دليلاً على أن معارضة النبي ﷺ كانت قد بدأت عندها فعلاً. فنحن المسلمين نؤمن أن القرآن الكريم وحي الله تعالى، ومن المحال أن نشك فيما إذا كان الله تعالى يعلم بالمعارضة القادمة أم لا، بيد أن ما يقوله

القسيس "ويري" وأمثاله من أنه لا يمكن حتى الحديث الإجمالي عن المعارضة أيضًا إلا بعد ظهور أماراتها فقول باطل. فليعلمْ هؤلاء القوم الذين يعتبرون القرآن الكريم من كلام البشر أن المرء حين يعرض على الناس أمرا جديدا يتوقع منهم الرفض والإنكار دائمًا. صحيح أنه لا يمكن أن يقدِّر في البداية شدة إنكارهم ونوعه، ولكنه يتوقع منهم الإنكار حتمًا، إذ كيف يتصور عاقل أن يعلن المرء دعوى تتعارض مع عقيدة قومه ودينهم وتقاليدهم وطقوسهم، ثم يتوقع منهم تصديقه فورا؟ كلا، بل سيرفضون قوله حتمًا. غير أنه إذا كان صادقا فسيرى في نهاية المطاف آثار القبول بتأييد من الله تعالى.

كما ذكرتُ من قبل مرارًا أنه إذا تطلب الأمر بيان تفاصيل المعارضة فإن الكتاب الحكيم يبينها حتمًا ولكن إما تلميحًا وإشارةً، أو في وقت قريب من وقوعها، لكي لا يقول المعارضون أن النبي هو مَن بدأ بالاستفزاز. فدرءًا لتهمة الإثارة والاستفزاز كان لا بد من ذكر الأحداث المشتملة على الأنباء عن المعارضة بكلمات غير جارحة. ولكننا نقول بهذا فيما يتعلق بتفاصيل الأحداث القادمة، أما القول أن الحقّ يواجَه بالمعارضة دائما فهو ليس مما يثير حفيظة الناس؛ ففي كل يوم يقول الناس في مجالسهم إن كل حقيقة جديدة تلقى المعارضة دائمًا، ولكن قولهم هذا لا يثير أحدا ولا يغيظه ولا يؤدي إلى أي فتنة أو فساد.

الواقع أن القسيس "ويري" قد اضطُر لهذا الاستدلال لأنه وُلد بعد نزول القرآن بقرون؛ فيريد تحديد زمن نزول سُوَره بعقله. إنه يفكر أنه ما دامت هذه السورة تتحدث عن المعارضة وليس عن معارضة محمد (ﷺ)، بل معارضة قوم نبي خلا من قبله (أي ثمود)، فلا بد أن تكون الآيات الأخيرة منها نزلت بعد أن بدأ محمد (ﷺ) يواجه معارضة منظمة في مكة. ولكي نثبت أن أسلوب استدلاله باطل كليًّا نضرب له مثالاً مبنيًّا على أحداث التاريخ لا يمكنه إنكاره البتة.

إن زمن المسيح الموعود عليه السلام مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية كله مؤرَّخ، وقد أوحى الله إليه في زمن لم يكن قد نشر فيه كتابه "البراهين الأحمدية: "جاء نذير في الدنيا، فأنكره أهلها وما قبلوه، ولكن الله يقبله، ويُظهر صدقه بصولٍ قويٍّ

شديدٍ؛ صولٍ بعد صولٍ". (التذكرة، ص ٨١). فهذا الوحي يتحدث عن معارضة سيواجهها عليه السلام من الناس، كما يتحدث عن هجماتٍ ربانية مضادة لهذه المعارضة، ولكن الله تعالى قد استخدم هنا كلمة "الدنيا"، وهكذا وسَّع مفهوم نطاق المعارضة والمعارضين؛ إذ يمكن أن يفهم منه المسلمون أن هذا الوحي يتحدث عن المسيحيين، ويمكن أن يفهم منه المسيحيون أنه يتحدث عن المسلمين. ثم تحدَّثَ الوحي عن المعارضة بشكل عام بدلاً من أن يصرح الله تعالى فيه أن متصوفة المسلمين وأكابرهم وعلماءهم خاصة سيعارضونه، فقال: "فأنكره أهلها وما قبلوه". وقد تلقى المسيح الموعود عليه السلام هذا الوحي عندما كان يؤلف "البراهين الأحمدية" وكان الناس يكنّون له حبًّا وتقديرًا عظيمين حتى إن الشيخ محمد حسين البطالوي –وهو الذي صار فيما بعد أكبر معارضيه عليه السلام وبذل كل ما في وسعه في عداء الأحمدية، ومَنَعَه كبرُه وغروره من قبول أي شيء– قال عند قراءة "البراهين الأحمدية": "إن ما نراه.. حين نضع هذا العصر وأحواله في الاعتبار.. أنه لم يُنشَر مثيل لهذا الكتاب منذ بدء الإسلام إلى هذا اليوم، ولا نعلم ما يمكن أن يحدث في مستقبل الأيام، لعل الله يُحدث بعد ذلك أمرا."

ثم كتب في مدح المسيح الموعود عليه السلام: "ثم إن مؤلِّفه مثابر في نصرة الإسلام بماله ونفسه وقلمه ولسانه وحاله وقاله بحيث إن من النادر أن تجد له مثيلا بين المسلمين السابقين."

ثم خوفًا من أن يعتبر أحد رأيه مبالغا فيه، أكده بقوله: "ومَن يعتبر قولنا هذا مبالغةً تمشيًا مع أسلوب الآسيويين.. فعليه أن يدلنا على كتاب واحد على الأقل تصدَّى بكل قوة وبرهان لأعداء الإسلام من كل الطوائف.. وخاصة من الآرياسماج والبراهموسماج الهندوسيتين.. ويقدم لنا أسماء ثلاثة أو أربعة من أنصار الإسلام الذين نصروه بأموالهم وأنفسهم وأقلامهم وألسنتهم مثلَه، فتحدَّوا أعداء الإسلام ومنكري الوحي أنَّ مَن كان في شك من نزول الوحي من الله تعالى فليأت إلى صاحب التحدي نفسه ويشاهد بنفسه ظاهرة الوحي، بل إن صاحب التحدي

قد أذاق الأمم الأخرى طعم هذه المشاهدة والتجربة." (مجلة "إشاعة السنّة"، المجلد السابع ص ١٦٩، من شهر يونيو إلى أغسطس ١٨٨٤)

فنرى أنه في الوقت الذي كانت الدنيا تشيد فيه بالمسيح الموعود عليه السلام، وكان كبار الولاة وعِلْية القوم يراسلونه طالبين منه الدعاء لهم، وكان العلماء والعامة يكنّون له الحب والاحترام، و لم يكن ثمة آثار للمعارضة، أوحى الله إليه: "جاء نذير في الدنيا، فأنكره أهلها وما قبلوه، ولكن الله يقبله، ويُظهر صدقه بصولٍ قويٍّ شديدٍ؛ صول بعد صولٍ".

فترى كيف رسم هذا الوحي الرباني أنواع المعارضة التي نتعرض لها اليوم أو قد سبق أن تعرضنا لها رسمًا موجزًا مكتملا. على المرء أن يفكر مَن ذا الذي أخبر المسيح الموعود عليه السلام أن الدنيا ستعارضه معارضة شديدة تستدعي صولاتٍ متكررة من الله تعالى لإظهار صدقه عليه السلام. لقد كان المسيح الموعود عليه السلام يعلن أنه خادم الرسول ﷺ، فإذا كان الله تعالى قد أخبر خادمَ الرسول ﷺ سلفًا أنه سيتعرض لمعارضة شديدة في وقت لم يكن فيه أية آثار للمعارضة، فليس صعبًا على الإنسان "الذكي" مثل القس "ويري" أن يعرف أنّ الله تعالى قادر أن يخبر سيدَ هذا الخادم أيضا بأن معارضته قريبة. ولكن التعصب الموجود عند القسيسين عادة والمعارضة العامة للإسلام قد جعلا من الصعب جدا على القس "ويري" أن يفهم كيف علم محمد (ﷺ) في بداية دعوته بأن المعارضة قريبة مع أنه لم يكن هناك أي آثار لها. فليعلم القسّ "ويري" أن الأمر هنا لا يتعلق بعلم محمد ﷺ، بل بعلم الله تعالى. ومع ذلك لو افترضنا جدلاً أن هذه السورة من تأليفه ﷺ فليعلمْ "ويري" أن كل مَن يعرض على الناس أمرًا جديدا مخالفًا لعقائدهم وتقاليدهم وطقوسهم فإنه يدرك جيدًا أنهم سيعارضونه حتمًا، وإنْ لم يعلم نوعية المعارضة وشدّتها. فعندما نزل أول وحي على النبي ﷺ ذهبت به خديجة –رضي الله عنها– إلى ورقة بن نوفل، فقال له إن قومك سيعارضونك حتى يُخرجوك من مكة، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلا عُودِيَ. (البخاري، كتاب بدء الوحي)

فلو اعتبرنا هذه السورة مما نزل في السنة الأولى من البعثة فنرى أنه حتى ورقة بن نوفل كان قد أخبر النبي ﷺ عن مخاوفه وأخبره صراحة أن قومه سيعارضونه.

باختصار، إن ورود ذكر المعارضة في هذه السورة ليس وحده دليلاً على أنها نزلت قريبًا من زمن المعارضة أو خلالها. نعم، إن ورود بعض التفاصيل عن المعارضة في سورة ما يمكن أن يكون دليلاً على نزولها في زمن المعارضة أو قريبًا منها، ولكنه ليس دليلاً قطعيًا على ذلك. خلاصة الكلام، إن ورود ذكر معارضة الأنبياء في آخر هذه السورة ليس وحده دليلاً على أنها نزلت في السنة الثالثة أو الرابعة، بل هو استنتاج باطل تمامًا. قد تكون هذه السورة قد نزلت في السنة الثالثة فعلاً، ولكن اعتبارها مما نزل في بداية السنة الثالثة أو الرابعة بحجة أنها تتحدث عن معارضة الأنبياء مرجعه عداوة القسيس فحسب.

الترتيب والترابط:

يزعم المستشرق السير وليام موير أن سور الفجر والبلد والشمس والليل والضحى طابعها ما يسمى بالإنجليزية (soliloquires).. أي مناجاة النفس (تفسير "ويري" المجلد ٤ ص ٢٥١)، بمعنى أنها من قبيل حديث المرء مع نفسه متأثرا بما يختلج في قلبه من خواطر وأفكار. ويقصد وليام موير من هذا أن محمدًا (ﷺ) كان يتأمل في حالة قومه معتكفًا في غار حراء، فاتخذ بعض القرارات بشأن ما كان قومه فيه من مساوئ وشرور، فدوّن خواطره وقراراته تلك في هذه السور. مما يعني أن هذه السور عند المستشرقين إنما هي آهات كانت تنطلق من قلب النبي ﷺ المضطرب.. إنها ابتهالات رفعها إلى الله تعالى برؤية سوء حال قومه.. إنها صراخ وبكاء سُمع دويّه في غار حراء المظلم. فبينما كانت الدنيا منغمسة في ملذاتها، والناس غافلين عن الله تعالى.. متّبعين خطوات الشيطان، كان محمد رسول الله ﷺ يتأوه في ساعات انفراده برؤية ما فيه قومه من سوء وفساد، ويثير ضجة بابتهالاته أمام الله تعالى، ويقضي يومه في كرب شديد. وفي نهاية المطاف ظهرت للدنيا آهاته وابتهالاته وصيحاته وبكاؤه وعويله في صورة هذه السور.

أيًّا كان قصد العدو من هذا القول إلا أنه قول جميل حقًا. لا شك أنه أراد أن يقول أن مضامين هذه السور إنما هي بنات أفكار محمد، حيث سجل فيها ما كان يختلج في قلبه من مشاعر وأحاسيس، ولكننا نعرف أن الله تعالى أيضا يعبّر عن مشاعر البشر في وحيه. إذا كانت هذه مشاعر محمد ﷺ فهذا يعني أن اختيار الله تعالى له لرسالته في محلّه تماما، حيث اختار لها شخصا مشاعره منسجمة مع مشيئته تعالى. إذًا، فنحن لا نرفض قول العدو هذا، بل نقبله من منظور آخر، ونقول إذا كان صحيحا أن هذه السور تعبير عما كان يختلج في قلب محمد ﷺ من أفكار وخواطر فهذا دليل على ما كان يقاسيه من آلام وما يهيج في قلبه من أفكار وعواطف برؤية بؤس العبيد واليتامى في المجتمع، إذ كان ﷺ يفكر أن قومه لن يتقدموا ما لم يغيّروا سلوكهم. فالعدو يمكنه أن يعتبر هذه السور كلام إنسان واختلاق محمد (ﷺ)، إلا أنه لا بد له من الاعتراف بعظمة وصلاح ذلك الإنسان، إذ كان سبب فضله على غيره أنه كان لا يطيق السكوت على ظلم الضعفاء وهضم حقوق الفقراء والبائسين ولا يقدر على سماع آهات اليتامى والمساكين، فلا يمكن إنكار صلاحه وعظمته. فإنه برؤية هذه الأحوال السيئة كان يؤْثر العيش في ظلمة غار حراء منعزلا عن الدنيا وضوضائها بعض الوقت، ثم يرجع إلى الناس ولكنه ما كان يرجع إليهم طمعًا في المال أو العزّ والجاه أو الحكم والسيادة، بل لينهض بهذه الطبقة المقهورة في المجتمع ويصلح حالهم ويزيل ما بهم من فساد ليقفوا في صفوف الشعوب المتقدمة في العالم. إن وليام موير جعل مضامين هذه السور من قبيل مناجاة المرء نفسَه وتعبيرِه عن خواطره التي تختلج في قلبه خلال تأملاته العميقة، ولكنا نقول إذا كانت هذه هي أفكار محمد ﷺ.. وإذا كانت هذه هي العواطف التي كانت تختلج في أعماق نفسه ﷺ – أي إذا كان ﷺ يقول في نفسه ليس هناك مَن يهتم بهؤلاء العبيد ويكفل هؤلاء الأيتام ويرعى هؤلاء المساكين، لذا فعليّ أن أخرج من هذه الخلوة في غار حراء ولا أبرح حتى يرتدع كبار القوم وعِليتهم عن مظالمهم– فإن هذه الأفكار في حد ذاتها تبلغ من الطهر والقداسة بحيث إن أي إنسان عنده مسحة من العقل سيعترف بفضل محمد ﷺ حتمًا.

ليس أمامنا إلا خياران؛ فإما أن نعتبر القرآن كلام الله تعالى أو كلام إنسان؛ فإذا اعتبرناه كلام الله فلا اعتراض، وإذا اعتبرناه من نسج خيال الإنسان فلا شك أنه إنسان طاهر بحيث لا يمكن لأحد إنكار طهره وقداسته.

ولفهم الصلة الموجودة بين هذه السورة وغيرها من السور يجب أن نعلم أن هذه السور الخمس -التي تكلمنا عنها من قبل في معرض الحديث عن ترتيب السور- تتحدث عن ضرورة مساعدة الفقراء والنهوض باليتامى والمساكين، حيث قال الله تعالى في سورة الفجر ﴿كَلَّا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾(الآيات:١٨-٢١)، وقال في سورة البلد ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾(الآيات:١٣-١٨)، ثم تحدّث عن هذه الأخلاق هنا في سورة الشمس فقال ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الآيات:٩-١١)، ثم قال تعالى في سورة الليل ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾(الآيات:٦-١١)، ثم قال فيها أيضا ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾(الآيات:١٨-٢٠)، ثم قال تعالى في سورة الضحى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾(الآيات:١٠-١٢). وقد تبين من ذلك أن هذه السور الخمس وثيقةُ الصلة فيما بينها حيث تحثّ على الأخلاق الفاضلة ولاسيما الأخلاق ذات الصلة الوثيقة برقي الأمم، والتي تدعو إلى النهوض بالمظلوم المقهور والبائس الفقير، وإلى اتخاذ التدابير المناسبة لرقيهم. وهذه العواطف وإنْ سماها العدو مشاعرَ محمد ﷺ نفسه، إلا أنها تبيّن أن ما دفع محمدا ﷺ إلى إصلاح المجتمع هو عاطفة خدمة الفقراء والنهوض باليتامى والمساكين.

لقد قال صاحب "البحر المحيط" أن صلة هذه السورة بالتي قبلها هي أن الله تعالى قد أقسمَ بمكة من قبل، وأقسمَ هنا بشيء من العالم العلوي والعالم السفلي.

إنني أقدر صاحب "البحر المحيط" أكثر من أي مفسر آخر، لأنه مولع مثلي ببيان العلاقات بين السور والترابط بينها، ولكنه للأسف قد ذكر هنا أمرا سطحيا جدا. والحق أن هذه السور الخمس عميقة الصلة فيما بينها مضمونًا، ولو ربطنا مضمون سورة البلد بمضمون سورة الشمس لارتبطت هذه الأخيرة بالتي قبلها تلقائيا، فلا يبقى هناك مشكلة في بيان ترتيب هذه السورة؛ ذلك لأن السورة التي تسبقها تتحدث عن مساعدة الفقراء، كما أن السورة التي تليها أيضا تحثّ على الإنفاق على الفقراء والمساكين، وهكذا فإن هذا المضمون وحده يربط سورة الشمس بما قبلها وبعدها ربطا عميقا. ولو أن صاحب البحر المحيط اكتفى بتبيان هذا الأمر لكان قوله معقولا جدا، ولكنه ذكر أمرًا بلغ الغاية في السطحية فقال: لّما أقسمَ الله تعالى بمكة في السورة السابقة فقال تعالوا نقسم الآن بأشياء من العالم العلوي والعالم السفلي. لقد اضطر لهذا التأويل المتكلف لأنه لم يفطن إلى الترتيب الحقيقي لهذه السور. لا شك أن الإنسان إذا فكر في شيء تطرّقَ فكره إلى شيء يرتبط به، فمثلاً إذا فكر أنه لم يقابل فلانًا من أصدقائه انتقل ذهنه إلى زوجته وأولاده ثم إلى وطنه، وهكذا يظل تفكيره مشغولاً بشتى الأشياء التي لها صلة به. لا شك أن هذا يحدث وأن فكرةً تولِّد فكرة أخرى، ولكن هذه القاعدة تتعلق بالبشر لا بالله تعالى. إن الإنسان ينسى الكثير من الأشياء، وعندما يفكر في شيء يتذكر أشياء أخرى مرتبطة به، ولكننا لا نتحدث هنا عن شعر شاعر، بل عن كلام الله تعالى الذي هو عالم الغيب، والذي هو أسمى من قاعدة "تذكُّر الحديث بالحديث".

الواقع أن الله تعالى قد بيّن في السورة السابقة غايةَ بناء الكعبة، وقال لرسوله إننا نُقسم بهذا البلد ونُقسم بإبراهيم الذي بناه، لقد بناه لكي يكون بلدا آمنا، ولِيَنذِر أهله حياتهم في سبيل الله تعالى دائمًا، ولكن ما هي مكة الآن؟ لقد ساءت حالها حتى إنك حِلٌّ بهذا البلد.. أي قد اعتبر أهلها إيذاءك حلالاً فيها. لقد دعا إبراهيم ربه عند بناء مكة أن تظل هذه بلدةً آمنةً على الدوام فقال ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(البقرة:١٢٧)، ولكن ابن إبراهيم -أي محمد ﷺ نفسه- قد أصبح فيها عرضة لصنوف الأذى.

فكيف يمكن أن تقرّ عين الإنسان الذي دعا ربه أن تكون مكة آمنة لمن يأتونها من الخارج بينما جُعل ابنه فيها هدفًا لكل أنواع الأذى؟

ولو قال أهلها صحيح أن إبراهيم قد دعا لأن تظل مكة آمنة على الدوام، إلا أنه قد خرج بيننا شخص بدأ يعارض عقائدنا، فكان لزامًا علينا تفنيد أقواله ودحض عقائده ولو على حساب أمن مكة.

فالجواب: لا شك أن محمدا ﷺ يعارض عقائدكم مما يثير حفيظتكم، ولكن أنسيتم دعاءً آخر لإبراهيم عليه السلام؟ فإنه لم يدعُ أن تظل مكة آمنة فحسب، بل دعا أيضا ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة:١٣٠). ألا يعني دعاؤه هذا أن أهل مكة سيفسدون في يوم من الأيام؟ لو كنتم برئيين من الفساد لما كانت هناك حاجة لبعثة رسول فيكم؟ فما دام إبراهيم عليه السلام قد أنبأ ببعثة رسول فيكم، فإنه قد أخبر أيضا أن قومه سيفسدون بعده، ولذلك قد مسّت الحاجة إلى بعثة رسول فيهم يصلح عقائدهم ويزيل مفاسدهم. فلولا انتشار المساوئ فيهم لما كانت هناك حاجة لأن يُبعث فيهم رسول ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾. فقوله تعالى ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ يدل على أنه سيأتي على أهل مكة زمان ينسون فيه آيات الله، وقوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ يدل أنهم سينسون كتاب الله تعالى يوما ما، وقوله تعالى ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يبين أنه سيأتي عليهم وقت يفقدون فيه صوابهم فيعتنقون عقائد موغلة في الحمق، وقوله تعالى ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يشير إلى أنهم سيحيدون جدًا عن جادّة التقوى في يوم من الأيام، فتمسّ الحاجة إلى بعثة رسول فيهم يعود بهم إلى الهدى ثانيةً.

إذًا، قد بيّن الله تعالى هنا أن مكة قد أُسّستْ لإقامة نظام واسع يتضمن التعاليم الروحانية والعَقَدية والسياسية والمدَنية والشخصية والاقتصادية والعلمية والدولية والفكرية والأخلاقية وحكمتَها وضرورتها، ولا يكتفي بتقديم النظريات، بل يُصلح أفكار الإنسان وأعماله ومعاملاته بالفعل. فقوله تعالى ﴿يتلوا عليهم آياتِك﴾ تضمّنَ التعاليمَ الروحانية والعقدية، وقوله تعالى ﴿ويعلّمهم الكتاب﴾ إشارةٌ إلى التعاليم

السياسية والمدَنية والشخصية والاقتصادية والعلمية والدولية والفكرية والأخلاقية، وأما قوله تعالى ﴿والحِكْمَةَ﴾ فيشير إلى حكمة هذه الأحكام كلها وضرورتها، وقوله تعالى ﴿وَيُزَكِّيهِم﴾ فيعني أن تلك الأحكام لن تكون مجرد نظريات فارغة، بل تهدف إلى إصلاح فكر الإنسان وعمله ومعاملاته بصورة عملية.

إذًا، فكانت هناك نبوءة إبراهيمية عظيمة وكانت هذه مهمة كبيرة يجب تنفيذها في العالم، والقيام بها كان يتطلب أن يُبعَث ابنٌ كاملٌ في نسل إبراهيم عليه السلام، لأنها ما كانت لتكتمل بدون ابنٍ مثلِه. عندما دعا إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا﴾ قصد من قوله ﴿فِيهِمْ﴾ قومه هو حتمًا، فكأنه قال: رب ابعثْ في قومي رسولاً كاملاً. مما يدل على أن إبراهيم كان يسلّم بضرورة بعثة ابنٍ كاملٍ في نسله لا يمكن إنجاز هذه المهمة من دونه. والآن قد فصّل الله تعالى في هذه السورة (الشمس) كفاءاتِ هذا الابن الكامل، وأخبر أن هذه المهمة لن يقوم بها إلا إنسان مزود بهذه القدرات والكفاءات.

فالحق أن الأمر قد اشتبه على صاحب "البحر المحيط" لورود كلمات الشمس والقمر والسماء والأرض هنا، فظن أن صلة هذه السورة تكمن في هذه الكلمات التي تبتدئ بها: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾(الشمس:٢-٧).. فظن خطأً أن هذه الكلمات هي التي تربطها بالسورة التي قبلها حيث أقسم الله تعالى فيها بمكة، وأما الآن فقد أقسَم بالشمس والقمر والسماء والأرض. والحق أن هذه الكلمات ليست المقصود الحقيقي في هذه السورة، وإنما هي أمثلة لبيان تفصيل الهدف الحقيقي، الذي هو النفس الكاملة التي تكون مطّلعة على سبل التقوى والفجور كل الاطلاع، ثم لا تزال تطوِّرها.. أي أنها لا تكتفي بالعمل بدين الفطرة، بل تُحصِّل دينَ الشريعة أيضا. وكان الله تعالى قد ذكر هنا أمثلة الشمس والقمر وغيرهما ليسهّل علينا فهم هذه النفس الكاملة وكفاءاتها، ولكن صاحب "البحر المحيط" قد اعتبر هذه الأمثلة مقصودًا حقيقيًا هنا، مع أن المقصود الحقيقي هنا هو النفس الكاملة.

لقد قال الله تعالى في السورة السابقة أيضا ﴿وَوالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾.. أي أننا نقدّم كشهادة والدًا ووَلَدَه أيضا.. فكان لزاما أن يبين هنا خصال هذا الولد، وهذا ما فعل فذكر أن صفات الولد الذي أنبأنا أنه سيتلو على الناس آيات الله ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم هي كيت وكيت، ففصّل تلك الصفات في هذه السورة مبينًا أن هذه هي الصفات اللازمة للنفس الكاملة. كما بين أن النفس الكاملة نوعان: شمس وقمر، ثم ضرب أمثلة لهذين النوعين ليبين أن هذا الزمن بحاجة إلى هذا النوع من النفس الكاملة، وأن النبوءة الإبراهيمية لا تتحقق إلا ببعثة مثل هذه النفس الكاملة في هذا العصر. فالحق أن الشمس والقمر قد ذُكرتا هنا لبيان صفات النفس الكاملة وليستا المقصود الحقيقي لهذه السورة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

الشمس: الكوكب النهاري المعروف، مؤنثة. وشَمَسَ الرجلُ: امتنع وأبى. وشَمَسَ الفرسُ: كان لا يمكِّن أحدًا مِن ظهره ولا مِن الإسراج والإلجام ولا يكاد يستقرّ. (الأقرب)

وهذا يعني أن الشمس تطلق على الكوكب المعروف الذي ضوءه ذاتي، وكذلك على الشخص الذي يأبى الانقياد لأحد لكونه كاملا في حد ذاته؛ إذ الشامس مَن يمتنع عن طاعة غيره. لا شك أن الذي يأبى أن يطيع غيره كِبْرًا سيئ، ولكن الذي لا يطيع أحدا لأن الله تعالى قد خلقه لقيادة الآخرين لا للانقياد لهم، فليس بسيّئ. إذًا فالإباء نوعان، أحدهما: أن لا يطيع التابع متبوعه، والثاني: أن لا يطيع المرء غيره لأنه لم يُخلق لطاعة الآخرين بل لقيادتهم، ومثاله أن الشخص العالِم حقًّا واجبُه أن يصدر الفتوى للآخرين، فلو جاءه جاهل وقال له: لا تُفْتِ هكذا،

بل هكذا، فلا بد أن يرفض قوله ويردّ عليه: لا يحق لك أن تأمرني، بل عليك أن تطيعني؛ فرفضُه ليس كبرًا، بل هذا هو منصبه. وقد استخدم القرآن الكريم لفظ الإباء بهذا المعنى في قوله تعالى ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(التوبة:٣٢).. والبدهيّ أن إباء الله ليس من التكبر في شيء. وكذلك يقال للملِك: أبيتَ اللعنَ.. أي قد بلغتَ من الشرف بحيث تأبى أن يقترب منك أي نوع من اللعن. وكذلك يقال: رجل أبيٌّ للذي يأبى الظلم والضيْم. فحروف ش م س تتضمن معنى الإباء أيضا. وعليه فالمراد من الشمس مَن لا يرضى بطاعةٍ غير واجبة.. أي مَن زوّده الله بكفاءات بحيث إنه لم يُخلَق للانقياد للآخرين، بل خُلق ليقوِّم العالَمَ، فلا يليق به إلا سيادة الآخرين، لا أن يطيع أحدًا منهم.

ضُحاها: ضَحا يضحو ضَحْوًا الطريقُ: بدا وظهَر. والضحى: بعد الضَّحْوة، أي حين تشرق الشمس. والضَّحْوَة: ارتفاع الشمس. وقال البعض: الضحوة: طلوعُ الشمس، والضحى: بعد الضحوة، والضَحاءُ: عند ارتفاع النهار الأعلى. (الأقرب)

التفسير: يقول الله تعالى نقدم شهادةً الشمسَ وظهورها وضوءها.

اعلم أن كل شيء في الدنيا له اعتباران: ذاتي.. أي بحسب كميته ووزنه، ونسبي.. أي مقارنةً مع غيره من الأشياء. فمثلا هناك شجرة طولها عشرة أقدام، فالعشرة أقدام هذه هي قامتها الأصلية، ولكن لها قامة نسبيّة مقارنةً بالأشياء الأخرى، فمثلا لو نظر إليها شخص مِن فوق تلٍّ ارتفاعه عشرون قدما، فلن يرى طولَها كله، وربما يبدو له أن طولها قدمان أو ثلاثة أو أربعة. وإذا نظر إلى هذه الشجرة شخص واقف في حفرة، فيبدو له طولها ثلاثة عشر أو أربعة عشر قدما. كذلك لو نظر إليها شخص من بُعد، فتبدو له قصيرة جدًّا. أو خذ مثلاً الجبال.. فمع أن ارتفاع بعضها يبلغ ألفي قدم بل أربعة آلاف بل عشرين ألفا، إلا أنها تبدو مِن بعيد كخيمةٍ كبيرة عالية. كذلك لو نظرتَ إلى شجرة وأنت مستلقٍ تحتها، لرأيتَ لها منظرا مختلفا تماما. وكذلك لو وقفتَ بجانب منارة ارتفاعها مائة وخمسون قدمًا فيبدو لك طولها ألف قدم مثلا، ولكنك لو نظرت إليها من طائرة

من فوق فتبدو لك قصيرة جدًّا. باختصار، إن لكل شيء حقيقةً ذاتية في حالته الطبيعية، وحقيقةً نسبية بمقارنته بالأشياء الأخرى.

وأضرب مثالاً آخر، هناك شخص يسهر الليالي متدبرًا في القضايا الهامة مِن فلسفة وفلك وسياسة واقتصاد وازدهار الأمم وانحطاطها، فيأتي بحلول وحِكم رائعة، ولنَقُلْ أنه تدبّرَ في مائة قضية وأتى بمائة حِكمة أو حل، فيلقى في الصباح شخصًا فيحكي له حكمة من هذه الحِكَم، فيكون عِلْم هذا الشخص بالنسبة إليه هو ١% من علمه الذاتي. ثم يلقاه آخر فيذكر له حكمتين من هذه الحِكم، فيكون علمه بالنسبة إلى هذا الشخص هو ٢% من علمه الذاتي. ثم يلقاه شخص ثالث فيذكر له ثلاثا من حِكمه، فيكون علمه بالنسبة إلى هذا الشخص هو ٣% من علمه الذاتي. فكأن له ضوءًا عِلميا هو ذاتي وضوءًا علميًا هو نسبي مقارنةً بما عَلِمَه الآخرون من حكمه وحلوله، إذ إن ضوءه الذاتي هو مائة حل لمائة قضية، ولكن ضوءه النسبي هو حلّ واحد أو اثنين أو ثلاثة فقط بالنظر إلى الآخرين؛ إذ لا يعرفون من ضوئه الذاتي إلا هذا الحد فقط. ثم يلقاه شخص رابع، فيكلمه كلاما طويلا يذكر فيه خمسين من حلوله، فينكشف عِلمه على هذا الشخص بشكل آخر تماما. ثم يلقاه شخص آخر فيحكي له كل ما عنده من حلول، فينكشف عليه علمه وحكمته انكشافا مختلفا تماما. فالشخص الأول يعرف من حقيقة هذا العالِم ١% فقط، والثاني ٢%، والثالث ١٠%، والرابع ٥٠%، والخامس يظن أنه مطلع على ١٠٠% من علم هذا العالِم مع أنه قد اهتدى لهذه الحلول والحِكم بعد تدبر طويل عميق في هذه القضايا ساهرًا الليالي تلو الليالي، وربما يكون قد نسي كثيرا مما كان يعلم ولا يعرف حقيقته العلمية معرفة تامة، بل الله تعالى يعلم حقيقته العلمية هذه تماما.

الواقع أن الإنسان خُلق مزودًا بكفاءات عديدة، كما هو مزود بمَلَكَة إظهارها أيضا، فمثلاً لو سألتَ أحدا: كم تعرف من الكلمات العربية؟ فربما لن يستطيع أن يعدّ أكثر من خمسين أو ستين أو مائة كلمة، ولكنك لو قدّمت له كتابًا لقال لك أنا أعرف كل ما ورد فيه من كلمات. فالواقع أن الإنسان نفسه ليس عنده إدراك صحيح لكفاءاته، فضلاً عن أن يعرفها الآخرون. فمثلاً لو وضعتَ أمام الشمس

أشياء عاكسة لضوئها بدرجات متفاوتة، فكل واحد منها يعكس ضوءها بشكل مختلف، مع أن ضوءها الذاتي ذو شدة محددة. كذلك إن للسراج ضوءا ذاتيا ذا شدة محددة يتولد منه نتيجة احتراق زيته، ولكن هناك ضوء آخر له يختلف انتشارًا وشدةً عن ضوئه الذاتي بحسب الأشياء التي تعكسه. وهذا هو المعنى الذي بيّنه الله تعالى في قوله ﴿والشَّمْسِ وضُحاها﴾.. أي نقدم الشمس وضوءها الذاتي شهادةً.

وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

تلاها: تلا فلانا تُلُوًّا: تبِعه. (الأقرب)

وللمفسرين أقوال شتى في تفسير هذه الآية، فقال بعضهم.. إن قوله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾.. يعني والقمر إذا طلع وأنار بعد غروب الشمس فورًا، وذلك يكون في الخامس عشر من الشهر (تفسير زاد المسير). وقال غيره: إذا كمل ضوء القمر، فصار تابعًا للشمس في الإنارة، يعني: كان مثلها في الإضاءة، وذلك في الليالي البيض.. أي من الليلة الثالثة عشرة إلى الخامسة عشرة (فتح القدير). وقال غيره: عندما لا يُرى القمر؛ أي آخر ليلتَي الشهر. وقال قتادة: إن الشمس إذا غربت تبعها القمر ليلة الهلال في الغروب. وقال الفراء : المراد من هذا التلوّ أن القمر يأخذ الضوء من الشمس. (الرازي)

أما من قال بالهلال فقوله خطأ بداهة، لأن القرآن قد استعمل هنا لفظ القمر، ويُطلق القمر على هذا الكوكب حينما لا يكون هلالا. أما المعاني الأخرى فأفضَلُها ما يشير إلى اكتمال القمر.. لأن القمر في ليلته الرابعة عشرة يشبه الشمس من الناحيتين؛ أي أنه يطلع فورَ غروب الشمس ويتبعها فعلاً.. كما أنه يتبعها من ناحية الضوء أيضا، أي يتلقى ضوءها بشكل كامل، فلذلك أرجّح هذا المعنى على غيره.

التفسير: يقول الله تعالى إننا نقدّم شهادةً القمرَ أيضا.. أي شخصًا قادرا على اقتباسِ الضوء وعَكْسِه، ذلك أن بعض الأشياء كالمِرآة أو الماء الصافي أو حجر

الطلق تقدر على اقتباس الضوء وعكسِه، ولكن هناك أشياء ليست كذلك، فمثلا لو جلس أمامك شخص في الشمس فلن تقول له ابتعدْ من هنا لأنك تعكس ضوء الشمس الذي قد يضر عيني، ولكن لو وُضعت مرآة أمام الشمس فسوف تضر عينك ضررا كبيرا وقد تفقد بصرك بما تعكس من أشعتها. وكذلك تقع أشعة الشمس على الكلأ كل النهار ولكنك لا تتأذى برؤية الكلأ، بل تتمتع، ولكن توجد في مصر مثلا ميادين صحراوية واسعة رمالها ذات حبيبات كبيرة، وكل لامع يعكس الضوء، والرمال ذات الحبيبات الكبيرة شديدةُ اللمعان، ولذلك عندما يمر الناس بهذه الميادين الرملية يصابون بالعمى مِن أشعة الشمس المنعكسة على الرمال. ويوجد في مصر مئات العميان الذين فقدوا بصرهم بهذه الظاهرة؛ إذ خرجوا إلى تلك الرمال خطأً فعموا.

والحال نفسه بالنسبة إلى ضوء السيارة، فتقع حوادث كثيرة بسبب الأضواء الشديدة المنبعثة من السيارة القادمة. يتساءل الناس في حيرة: كيف وقع الحادث مع أن في السيارة أضواء يراها السائق من بعيد؟ ولكنهم لا يدرون أن هذه الأضواء اللامعة من بعيد تنتشر بحيث لا يدرك السائق الآخر مكانها بالضبط، فتصطدم بالسيارة القادمة. الواقع أن لمصابيح السيارة ضوءًا ذاتيا يعكسه العاكس ويزيده أضعافا مضاعفة، وينشره بعيدا ويبدد الظلام من بعيد، ولولا العاكس لظل الضوء محدودا جدا. والقمر هو العاكس في الواقع.. أي الشيء القادر على تلقِّي ضوء الشمس وإيصاله إلى الآخرين. لا يظنّنَّ أحد أن أي كوكب آخر يمكن أن يجذب ضوء الشمس ويوصله إلى الآخرين مثل القمر. كلا، إنما القمر هو الكوكب الوحيد القادر بين نظامنا الشمسي على تلقِّي ضوء الشمس ثم نقله وإنارة الأشياء الأخرى. ولذلك يقال عن القمر أنه ليس صالحا للعمران. لو كان صالحا للعمران لوجد فيه الكلأ والأشجار والأعشاب والغابات الواسعة، ولكنها لا توجد عليه؛ وإلا فلم يقدر على جذب ضوء الشمس ونقله إلينا. فالله تعالى جعل القمر عاكسا، فخلق عليه ميادين رملية شاسعة عاكسة عندما يقع عليها ضوء الشمس ينعكس ضوؤها وينتقل إلينا. ولذلك يقول الله تعالى هنا ﴿وَالْقَمَرِ إذا تَلاهَا﴾.. أي أننا نقدّم أمامكم شخصًا

هو كالقمر، ولا نقدّمه بصورة منفردة، بل نقدمه حال كونه واقعًا أمام الشمس تمامًا، ومتلقيًا ضوءها بشكل كامل. لا شك أن من مزايا القمر جذب ضوء الشمس ونقله إلى الآخرين، ولكنه إذا لم يكن أمامها لا ينقل ضوءها للآخرين؟ إن ميزته هذه لا تنكشف ما لم يواجه الشمس، أما إذا حال بينهما شيء لم يقدر على نقل الضوء إلى الأرض، فمثلاً تحول الأرض بينهما أحيانًا فينخسف القمر، أو لا يواجه هذا الكوكب الشمسَ في ليلته الأولى بشكل كامل، فيتراءى لنا هلالاً، لا قمرًا ولا بدرا، ولكنه في ليلته الرابعة عشرة يقابل الشمسَ تماما فيعكس ضوءها بكل قوة. ولذلك يقول الله تعالى هنا ﴿وَالْقَمَرِ إذا تَلاهَا﴾.. أي لا نقدم القمر وحده شهادةً، بل نقدّمه شهادةً حال كونه واقعًا أمام الشمس تماما؛ حيث يقتبس ضوءها وينير الدنيا.. وهذا يعني أن نوره لا ينكشف في أكمل صورة إلا إذا كان مقابل الشمس تمامًا، لأن هذه هي فرصة انجلاء ميزته بشكل كامل حيث يجذب ضوء الشمس، ثم ينقله إلى أشياء أخرى ويبدد به الظلام.

إذن فمفهوم الآيتين معًا بصورة كاملة كالآتي: إننا نقدم شهادةً الشمسَ التي ضوؤها ذاتي، ونقدّم أيضا ضوءها الذاتي هذا، كما نقدم القمر القادر على تلقّي الضوء من الأجسام المضيئة ثم نقله إلى غيرها، ونقدمه شهادةً حال كونه عاكسًا ضوء الشمس بشكل كامل ومنيرًا به العالم.

وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٤﴾

التفسير: واضح أن الشمس هي التي تأتي بالنهار لا أن النهار يجلّي ضوءها، ولكن حيث إن الكلام هنا من قبيل الاستعارة، إذ المراد من ﴿ضُحاها﴾ ضوء الشمس الذاتي، ولذلك فالمراد من النهار هنا وقوع الأرض أمام الشمس وكشفها لضوئها؛ فإننا حين نستخدم لفظ النهار فلا نعني أن الشمس بدأت تضيء، إذ هي مضيئة في كل حين، وإنما نعني أن أرضنا قد صارت أمام الشمس، فقوله تعالى ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ يعني: حين تقع الأرض أمام الشمس فتكشف وجهها. أما

قوله تعالى من قبل ﴿ضُحَاهَا﴾ فيشير إلى ضوء الشمس الذاتي، ذلك لأنها مضيئة في كل حال، فسواء ظهرت مشرقةً أمام أهل الأرض أم غابت عنها بسبب الغيوم أو نتيجة دوران الأرض، فهذا لا يؤثر في ضوئها الذاتي، ومع ذلك لا نسمي وقت الليل نهارا، إذ لا يُطلق النهار إلا على الوقت الذي تكون الشمس فيه مواجهةً بلدَنا، وإن كانت محجوبة عنا نتيجة الغيوم. أما إذا لم تكن مواجهةً بلدَنا ولم تحجبها غيوم فلا نسمي ذلك الوقت نهارا ولا نقول إن الشمس مضيئة. فثبت أن للنهار مفهومًا غير مفهوم ﴿ضُحاها﴾. إن ضحى الشمس قائمٌ في كل حين، سواء ظهرت لأهل بقعة معيّنة من الأرض أم لا، لأن الضحى يدل على ضوء الشمس الذاتي، أما النهار فيختلف من بقعة إلى بقعة، إذ يطلع النهار في مختلف بقاع الأرض في أوقات مختلفة، لأن المراد من النهار مواجهة الأرض الشمس وإراءتها وكشفها ضوءها لأهل بقعة من البقاع.

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤

التفسير: أي نقدّم شهادةً الليلَ حين تَحجب الأرضُ الشمسَ نتيجة دورانها. ما هو الليل؟ إنما هو تولِّي الأرض عن الشمس وحلول الظلام بها. وحيث إن حلول الليل نتيجةٌ لدوران الأرض، فقال الله تعالى هنا نستشهد بالليل حين يغشى ضوءَ الشمس، وإلا فإن الواقع أن تَولِّي الأرضِ عن الشمس هو ما يُنتِج الليل. وكأن قوله تعالى ﴿والنَّهارِ إذا جَلَّاهَا﴾ إشارةٌ إلى حالة الأرض حين تواجه الشمسَ وتُجلِّيها للناس، وأما قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ فإشارة إلى حالة الأرض حين تُولّي عن الشمس وتؤدي إلى حلول الليل بحجب الشمس عن أنظار الناس.

إذًا فهذه الآيات تتحدث عن أربعة أمور مختلفة؛ فقوله تعالى ﴿والشَّمْسِ وَضُحاها﴾ إشارةٌ إلى الشمس وضوئها الذاتي، وقوله تعالى ﴿والْقَمَرِ إذا تَلاها﴾ إشارةٌ إلى القمر وإلى ضوئه الذي يستمدّه من الشمس ويعكسه لنا، وقوله تعالى ﴿والنَّهارِ إِذا جَلّاهَا﴾ إشارةٌ إلى الأرض وانعكاس ضوء الشمس عليها، وقوله تعالى

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ إشارة إلى الأرض وحرمانها من ضوء الشمس بسبب دورانها اليومي.

تتميز الشمس بقدرة ذاتية على إضاءة الدنيا، أما القمر فيتميز بتلقِّي الضوء، أي أنه قادر على تلقِّي ضوء الشمس ونقله إلى الآخرين مثل العاكس الذي ينشر ضوء المصباح إلى أماكن بعيدة، وسواء كان القمر منيرا أم لا، إلا أنه مزود بقدرة عكس الضوء واللمعان، فإذا واجه الشمسَ تجلّت ميزته هذه ونقل ضوءها إلى أهل الأرض. وبعد ذكر الشمس والقمر قال الله تعالى ﴿وَالنَّهارِ إذا جَلّاهَا﴾.. أي نقدم شهادةً النهارَ حين يكشف الشمس. ثم قال تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾.. أي نستشهد بالليل حين تختفي الشمس نتيجة دوران الأرض حول نفسها.

الواقع أن هذه الآيات الأربع تشير إلى أربعة عصور مختلفة، فقوله تعالى ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ إشارةٌ إلى النبي ﷺ، حيث قال الله تعالى إننا نقدم الشمسَ أمامكم شهادةً. فما لم يُبعث شخص مضيء بنفسه يستحيل أن يتقدم أهل الأرض، خاصة في الزمن الذي يختفي فيه النور وينمحي، لأن الشعلة الخامدة لا توقِد نارًا، والسراج المنطفئ لا يضيء سراجا آخر، والعاكس لا ينفع إلا إذا كان الضوء موجودا. فإنك إذا ركَّبتَ عاكسًا على مصباح مضيء انتشر ضوؤه بعيدا. كذلك إن ضوء المصباح اليدوي الذي يعمل بالبطارية يكون ضعيفًا جدًّا، ولكن العاكس المركّب عليه ينشر ضوءه بعيدا، وإذا أزلته عاد الضوء أقل من النصف. فثبت أن العاكس إنما ينفع إذا كان الضوء موجودا بشكل أو بآخر، أما إذا انطفأ كل ضوء وانمحى كل نور فلا ينفع إلا الشيء الذي فيه ضوء ذاتيّ، ولذلك يقول الله تعالى هنا إننا نقدم لكم الشمس التي فيها ضوء ذاتي والتي هي أول وأكبر الوسائل لتبديد الظلمات.

والوسيلة الثانية للضوء هي القمر حين يكون أمام الشمس، فهو عندها ينير الدنيا بأشعته، فهاتان هما الوسيلتان لانتشار الضوء في العالم. وقد نبه الله تعالى هنا كافري مكة بهذين المثالين بأن هناك شيئين ينوّران الدنيا: شخص يملك نورًا ذاتيا، أما إذا كان نوره قد صار بعيدا عن الناس، فشخص يصبح إزاءه كالعاكس فيتلقى

نوره وينقله للناس. وليس هناك وسيلة ثالثة للضوء والنور. فأمعِنوا النظر جيدا أيها الكافرون لتعرفوا هل تملكون أية وسيلة منهما، وهل عندكم شمس ذاتُ ضوء ذاتي، أي نبيٌّ تشريعي ينفعكم مباشرةً؟ ولا تستطيعون أن تحتجوا قائلين إذا لم تكن عندنا شمس فيوجد فينا قمر يقتبس من نورها فينيرنا. كلا، إذ لا تتيسر لكم أي من الوسيلتين. الوسيلة الأولى أن تكون عند القوم شريعة، ولكن ليس لديكم شريعة نوح ولا شريعة إبراهيم أو أي نبي آخر؛ فماذا تتوقعون، وكيف تقولون إن أنوار آبائكم الخامدة ستنفعكم؟ إن حالتكم تقتضي بعثة نبي تشريعي حتمًا إذ لا توجد عندكم أي من الشرائع، فلزم أن تطلع عليكم شمس الهداية تخرجكم من هذه الظلمات إلى النور. وما لم يظهر فيكم من يحمل ضوءًا ذاتيا فلن تنفعكم هذه المصابيح القديمة المنطفئة.

والوسيلة الثانية للضوء هي القمر، ولكنه إنما ينفع إذا كانت الشمس موجودة ولكنها محجوبة عن أعين الناس، فلو قلتم إننا سننتفع بالقمر فقد كذبتم؛ إذ ليس عندكم أي شريعة حتى يظهر فيكم قمر بدون شريعة.

بعد ذلك قدّم الله شهادةً الأرضَ حين تتسبب في ظهور النهار، ثم قدّم الأرضَ شهادةً حين تُولِّي عن الشمس وتتسبب في حلول الليل على الناس.

والواقع أن هذه الآيات تشير إلى عصرين هامين للإسلام إشارة بليغة جدا، فبقوله ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ قد بيّن الله تعالى غرض الإسلام، وأخبر أن محمدا ﷺ شمس ذاتية الإضاءة، وكلما ارتفعت هذه الشمس الروحانية انتشر ضوؤها الذاتي في الأرض. وبالفعل نرى أن هذا القرآن الذي هو بين أيدينا اليوم قد خرج من نفس محمد ﷺ المطهرة المباركة، حيث اختاره الله تعالى لإنزال هذا الوحي العظيم عليه، فوصل إلينا بواسطته. فكل التعاليم القرآنية المفصلة غير المتبدلة التي قدّمها الإسلام، سواء منها ما يتعلق بتزكية النفس أو السياسة أو النظام أو الأخلاق أو الاقتصاد، قد خرجت من صدر الرسول ﷺ ووصلتنا. فكان ﷺ تلك الشمس التي كان ضحاها في حد ذاته دليلا عظيما على صدقه ﷺ سواء آمنت به الدنيا أم لم تؤمن. بل أقول: حتى لو اتخذ الناس القرآن مهجورًا بحجة أن تعاليمه فاسدة تماما،

فإن ضحى الرسول الكريم ﷺ سيظلّ متجليًا في الدنيا ما دام القرآن الكريم موجودا. إن المرء إذا أغلق عليه أبواب غرفته وقت النهار، أو إذا حجبت الأرض الشمسَ عن أنظار الناس نتيجة دورانها اليومي، فإن الشمس تكون موجودة ولا تندثر حتمًا، وإن لم يصل ضوؤها إلى الأرض التي تكون قد استدارت وولّت عنها أو إلى الشخص الذي أغلق عليه باب حجرته وقت النهار. وبالمثل يبين الله تعالى للناس بقوله ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ أنه سواء انتفعتم بنور محمد ﷺ أم لا، إلا أن نوره سيظل مشرقًا، وسيأتي يوم يعترف فيه الناس أنه ﷺ كان شمسا روحانية حقًا. فالشمس شمسٌ في كل حال سواء توجهَ إليها الناس أم أعرضوا عنها. لو توجهوا إليها لاستضاءوا من ضوئها، أما لو أعرضوا عنها فلن يضروا هذه الشمس ولا ضحاها شيئًا. لنفترضْ أن الرسول ﷺ لم يؤمن به أحد، فهل يضره هذا شيئا؟ كلا، لأن التعاليم التي أتى بها حول شتى القضايا الروحانية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية والعائلية والمدنية والعلمية تدلّ على كونه شمسًا في الواقع. فما دام الله تعالى قد بعثه شمسا روحانية، فلن يضره إذا لم يؤمن به أهل مكة، ولم يصدقه العرب كلهم. لقد كان بإمكانهم أن يقولوا -في هذه الحالة- لم يتولد النهار من هذه الشمس، ولم تقتبس الدنيا منها الضوء، ولكن ما كان لهم أن ينكروا كونه شمسا. إذا أتى المرء بشريعة ربانية جديدة، فقد ثبت منذ اليوم الأول أنه شمس روحانية، وإنْ آمن به الناس بعد ألف سنة. لا شك أنه يجوز لنا في هذه الحالة القولُ إن الدنيا لم تأت أمام هذه الشمس لتضيئها إلا بعد ألف سنة، ولكن لا يجوز لنا القول أن هذه الشمس ليست مضيئة في حد ذاتها. إذن، فقوله تعالى ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ يعني أن في محمد ﷺ نورا لا يضره معه إيمانكم به أو عدمه.

ثم قال الله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾.. أي أنه سيأتي بعد محمد ﷺ رجال هم بمنـــزلة أقماره الروحانية.. بمعنى أن محمدا ﷺ ليس في حد ذاته شمسًا مضيئة فحسب، بل قد خلق الله تعالى أُناسًا يقتبسون من ضوئه في كل زمن وينشرونه في الدنيا. وبتعبير آخر: إن محمدا ﷺ شمس في حد ذاته، كما جعل الله لهذه الشمس عواكس تنشر ضوءها. فكلما أعرضت الدنيا عن الشمس المحمدية لم يتركهم الله

على حالهم، بل أتى بقمر يقف مواجهًا لها فيقتبس ضوءها وينشره في الدنيا لتستنير الدنيا بنوره ثانية.

لو اعتبرنا الشمس والقمر والأرض من جنس الناس على سبيل المجاز، لجاز أن نقول إن الأرض حين تُعرض عن الشمس تمنُّعًا يقول لها القمر أين تهربين مني؟ سأقتبس من الشمس ضوءها وألقيه عليكِ. فكأن الله تعالى يخبر هنا أنه مهما أعرضت الدنيا عن هذه الشمس الروحانية وولّت الدبر عنها، إلا أننا سنبعث أقمارًا يقتبسون الضوء من هذه الشمس، فيبددون به ظلمات الدنيا ويحوّلونها نورا. فلو لم يكن هناك أي قمر وأعرضت الدنيا عن الشمس، لغرقت في الظلام و لم يبق هناك سبيل للنور، لذلك نجد أنه كلما جاء نبي بشريعة إلى الدنيا أعرض عنه أهلها وخيمت عليهم الظلمات، ولكن الله يعلن هنا أن محمدا ﷺ ليس نبيًّا من هذا القبيل، بل هو الشمس التي تتلوها أقمارها. إنه الحبيب الذي يطوف به عشّاقه، فإذا أعرضت عنه الدنيا تمنُّعًا ظهرت أقماره وأنارت أهلها.

ثم قال الله تعالى ﴿وَالنَّهَارِ إِذا جَلَّاهَا﴾.. أي أن شمسنا هذه ليست مضيئة في حد ذاتها فحسب، بل سيأتي زمان تقتبس فيه مِن ضوئها الدنيا. والنهار هنا لا يعني عصر حياة النبي ﷺ، بل ما بعد وفاته حين لن تكون هذه الشمس الروحانية موجودة، إلا أن وقت النهار سيذكِّر الناس بأنها موجودة ، إلى أن يحلّ الليل ويغطي الناسَ فيدركون ثانية أنه لا بدّ لهم من تلك الشمس لأن البعد عنها خسران وتباب.

لقد نبّه الله تعالى هنا إلى فَرْقٍ يوجد بين الشمس المادية والروحانية. فالشمس المادية ما دامت مضئية يظلّ النهارُ طالعًا، وإذا غابت عن الأنظار خيَّم الليل، وأما الشمس الروحانية فإنما يزداد ضوؤها بعد غيابها. وهذا يعني أن النهار المادي يطلع ما دامت الشمس المادية مضيئة أمام الناس، أما النهار الروحاني فيكتمل بعد اختفاء الشمس الروحانية عن الأعين. وبالفعل نرى أن القرآن والحديث قد أنارا الدنيا كلها، ولكنهما قد أناراها بعد وفاة النبي ﷺ وغياب هذه الشمس الروحانية عن الأنظار. هذا هو الفرق البيّن بين الشمسين الروحانية والمادية. إن نهار الشمس المادية يطلع عند طلوعها، ولكن نهار الشمس الروحانية يكتمل بعد مغيبها. عندما

تطلع الشمس المادية يبتهج الناس ويفرحون، أما الشمس الروحانية فتهبّ زوبعة من المعارضة عند طلوعها، فما مِن سبٍّ إلا كالوه لها وما من تهمة إلا رموها بها، ولم يألوا وسعًا لمنع ضيائها من الانتشار في العالم، ولكنها حين تغيب عن الأنظار المادية يزداد ضوؤها نصوعًا وانتشارا، ويقول الناس كان رجلا عظيما! وها نحن أيضا نصدّقه ونؤمن به. هذا الأمر نفسه قد أبكى عائشةَ -رضي الله عنها- مرة حتى إنها لم تستطع أن تستسيغ لقمة مِن رغيف صُنع مِن دقيق ناعم. وبيان ذلك أنه لما هزم المسلمون كسرى الفرس وقعت في أيديهم غنائم كثيرة منها طاحونة هوائية تطحن الحبوب طحنا دقيقا، وكان أهل مكة والمدينة قبلها يدقّون الحبوب بالمدقّ اليدوي الذي لم يكن يُنعِّم الطحين، فلما أُعدّ الدقيق الناعم بالطاحونة الهوائية أول مرة أمر عمر ﷺ بأن يُبعَث إلى عائشة -رضي الله عنها- لكي تأكل هي الخبز الناعم قبل أي شخص. فأمرت خادمةً لها لتعجنه وتصنع منه الخبز، فخبزتْ أرغفة ناعمة من الدقيق وقدمتها لعائشة، فأخذتْ لقمة من الخبز الناعم شاكرةً الله تعالى، وما إنْ وضعت اللقمةَ في فمها حتى ذرفت عيناها بالدموع. فقيل لها: ما يُبكيك؟ لماذا يغصّ هذا الرغيف الناعم في حلقك؟ قالت: إن الرغيف لا يغصّ في حلقي لجفافه، وإنما لنعومته. إني لا أبكي ألَمًا بل فرحًا. إننا نرفل اليوم في هذه النعم ببركة النبي ﷺ، ولكنه عندما كان بين ظهرانينا لم تكن النار توقد في بيوتنا لأيام، ولم يكن الخبز عندنا إلا من دقيق خشن قد طُحن يدويًا بالمدق الحجري.. ففكّرتُ لو كان النبي ﷺ معنا لقدّمنا له هذه النعمة. لقد أصبحنا نرفل في هذه الخيرات بدلاً منه ﷺ مع أنه لا دوْر لنا في هذه الإنجازات. هذا ما أحزنني، فغصّت لقمة الرغيف الناعم في حلقي.

فالقانون الجاري في العالم الروحاني هو أن النهار يطلع بعد مغيب الشمس عن الأنظار، ولذلك يقول الله تعالى ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾.. أي نقدّم شهادةً النهارَ حين يجلّي الشمسَ، بمعنى أن الشمس لا تكون عندها أمام الأنظار، ولكن النهار يكون دليلا على أنها طالعةٌ حتمًا. وبالفعل نجد أنه لم يتجلَّ صدق النبي ﷺ ولم ترسخ عظمة الإسلام في القلوب في زمنه ﷺ كما في زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

باختصار، هذا هو الفرق بين النهار الروحاني والمادي؛ ففي النهار المادي تكون الشمس طالعةً، أما في النهار الروحاني فتكون قد غابت، ومن أجل ذلك قال المسيح الموعود عليه السلام في كتيب "الوصية" ناصحًا جماعته وهو يخبرها عن قرب وفاته: "لا تحزنوا لما أخبرتُكم به ولا تكتئبوا، إذ لا بد لكم من أن تروا القدرة الثانية أيضًا، وإن مجيئها خير لكم، لأنها دائمة ولن تنقطع إلى يوم القيامة. وإن تلك القدرة الثانية لا يمكن أن تأتيكم ما لم أغادر، ولكن عندما أرحل سوف يرسل الله لكم تلك القدرةَ الثانية التي ستظلّ معكم إلى الأبد بحسب وعد الله الذي سجلتُه في كتابي "البراهين الأحمدية"، وإن ذلك الوعد لا يتعلق بي بل بكم أنتم، حيث يقول الله عز وجل: "إني جاعل هذه الجماعة الذين اتبعوك فوق غيرهم إلى يوم القيامة." فلا بد من أن يأتيكم يومُ فراقي لِيأتي بعده ذلك اليوم الذي هو يوم الوعد الدائم." (الوصية، الخزائن الروحانية، المجلد ٢٠ ص ٣٠٥)

ثم يقول الله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾.. أي سيأتي على أمتك يا محمد زمان يُعرِضون فيه عن الشمس الروحانية، فيخيّم عليهم الليل بدل النهار. فعوضًا عن أن يتبعوا أحكامك وأوامرك، ينسون مكانتك ويُعرضون عن أوامرك وينغمسون في الملذات متبعين خطوات الشيطان، وعندها نقول لهم لقد نسيتمونا ولكنا لن ننساكم، ومهما صددتم عنا فإنا لن نترككم. فعندما يخيم عليهم الليل وتدعو الدنيا بلسان حالها طلوعَ الشمس، فسوف يُطْلِع الله عليهم قمرًا يقوم مقام الشمس المحمدية فيقتبس من نوره ﷺ وينشره في العالم كله.

باختصار، قد بين الله تعالى في قوله ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ أن هناك نفوسًا تتحلّى بفضل ذاتي وتضيء العالم، والحقيقة أنها هي القادرة على إصلاح الدنيا حقًا، وهناك نفوس أخرى هي بمثابة القمر، ولا تقدر على هداية الدنيا إلا إذا تَلَتْ شمسَها، أي لا يكون فيها ضوء ذاتي، بل يكون نورها مكتسبًا. وقد استشهد الله هنا بهذين الأمرين ليخبر أن إصلاح العالم لا يتمّ إلا بهذين النوعين من النفوس: النفس الكاملة أو التابع الكامل لها. أما النفس الكاملةُ فمذكورة في قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، وأما التابع الكامل فمذكور في قوله تعالى

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾. فمن المحال أن يقوم أحد بواجب الإصلاح من دون أن يتصف بإحدى هاتين الصفتين. فلن يقوم بمهمة الإصلاح إلا من كان شمسًا، أي قد خلقه الله تعالى ليأتي بشريعة من عنده تعالى، أو مَن كان تابعا كاملا لصاحب شريعة بحيث يقتبس نوره كليةً ويُتمّ الغرض الذي بُعث متبوعه من أجله. وهذا يعني أن الغرض الأصلي هو الشريعة، فعندما لا تكون الشريعة بألفاظها موجودة في الدنيا ينـــزلها الله تعالى بواسطة النفس الكاملة، وعندما تكون موجودة بألفاظها وغائبة عمليًا ينـــزلها الله ثانيةً إنزالاً ظليًّا على التابع الكامل، فيقوم بمهمة إقامة الشريعة في الدنيا.

وهنا ينشأ سؤال لا بد من الرد عليه وهو: هل مِن الصدفة أن يعطي الله تعالى بعض الأنبياء شريعة ويجعل بعضهم تابعًا لهذا النبي المشرِّع؟ وهل كان ممكنا أن يجعل الله العكسَ فيعطي التابعَ شريعةً ويجعل المتبوعَ تابعًا؟

والجواب: هذا محال. إن صاحب الشريعة وتابعه لا يُبعثان صدفةً، بل يكون كلّ منهما مزوَّدًا بكفاءات متفاوتة. وقد بين الله هذا بمثال الشمس والقمر هنا، فأخبرَ أن صاحب القوى الشمسية يأتي أولاً، وصاحب القوى القمرية يتلوه ويأتي بعده لتكميل مهمته.

وهناك استدلال آخر يلقي الضوء على قضية هي مهمة بالنسبة للأحمدية، وهو أن من الممكن أن يكون البعض شمسًا لعصره، ولكنه لا يصلح لأن يكون قمرًا في عصر آخر، كما يمكن أن يكون البعض قمرًا في عصر عظيم، ولكنه لا يصلح لأن يكون شمسًا في عصر أقل شأنًا؛ والسبب اختلاف قدراتهم. لقد جعل الله بعضهم شمسًا وبعضهم قمرًا بالنظر لكفاءاتهم الفطرية، فمع أن أحدهم يكون قمرًا في زمنه من حيث مهمته، إلا أنه يمكن أن يكون أعظم روحانية من شمسٍ في عصر آخر، ولكنه لا يمكن أن يكون أعظمَ من شمسه، لأن القمر لا يسبق شمسه لاقتباسه نوره منها. إن النار مثلا بمنـــزلة شمس، لأنها تشتعل بنفسها ونورها ذاتي غير مكتسب، ولكنها تتضاءل أمام نور القمر؛ فالنار الملتهبة لا تضيء إلا بضعة أقدام حولها، وإذا أخذناها إلى مكان عالٍ فلا يصل ضوؤها بعيدا، بل لو وضعناها في مكان عال جدًّا

جدًّا لم يُر لها وجود وتحولتْ إلى ظلام. وهذا الفرق بين ضوء النار والقمر راجعٌ إلى أن القمر تابعٌ للشمس التي هي أقوى ضوءا من الأضواء الأخرى بحيث إن قمرها يصبح أقوى إنارةً من الأشياء الأخرى ذاتية الإضاءة والتي تكون بمنـــزلة شموس لهذه الخاصية.

والحقيقة هي ما ذكره المسيح الموعود عليه السلام في كتبه مرارا، فقال إن الله تعالى يختار الشموس من رجال مزوَّدين بملَكات الإقدام والقوة الحربية والاقتدار السياسي، لأنها كفاءات ضرورية لتطبيق الشريعة؛ ومثاله موسى عليه السلام حيث كان مزوَّدًا بكل هذه القوى والقدرات. أما الأقمار فيختارها الله تعالى من رجال تغلب عليهم صفات البكاء والابتهال والرفق والنصح، فتكون حياتهم مختلفة دائما عن الشموس الروحانية. فرغم أن كلا النوعين من الأنبياء يقومون بمهمة واحدة، إلا أن عصورهم تختلف اختلافا واضحا بحيث يبدون كشخصين مختلفين. وعلى سبيل المثال قد قام موسى وعيسى عليهما السلام بمهمة واحدة، ولكن دراسة حياتهما تكشف بونًا شاسعًا بينهما. وكذلك لو نظرنا إلى حياة الرسول ﷺ والمسيح الموعود عليه السلام لوجدنا بينهما فرقا واضحا؛ إذ كان طابعه ﷺ منذ البداية الإقدام والقوة الحربية وإرساء النظام، أما المسيح الموعود عليه السلام فطابعه البكاء والابتهال والرفق، حيث ينصح جماعته دائما ألا يتدخلوا في السياسة، بل ينشروا رسالة الله بين الناس برفق وحبّ. وهذا الفرق يماثل الفرق بين ضوء الشمس ونور القمر، فمع أن ضوء القمر مستمد من الشمس، إلا أن بينهما بوْنًا شاسعًا، حيث يختلف ضوء الشمس عن ضوء القمر كلية، وهذا ما سمّاه المسيح الموعود عليه السلام الجلال والجمال. الشمس تتصف بالجلال والقمر يتصف بالجمال. لا شك أن الشمس أيضا تتصف بالجمال إلى حد ما، والقمر كذلك يتصف بالجلال إلى حدّ ما، إلا أن طابع الشمس هو القوة الجلالية وطابع القمر هو القوة الجمالية. وحيث إنهما طابعان مختلفان فلا يمكن اعتبار كل قمر روحاني أدنى من كل شمس روحانية لمجرد كونه تابعا لشمسه. فلا يصح القول أنه لّما كانت الشمس الروحانية السابقة نبيًّا تشريعيا، فهي أفضل من الأقمار كلها. كلا، إنها لن تُعتبر أعظمَ من الأقمار كلها،

وإنما تُعتبر أكبرَ من أقمارها؛ لأن كل قمر يكون أدنى مِن شمسه فقط، ولكن قد يكون بعض الأقمار أكبر من الشموس الأخرى كلها إلا شمسه. ومثاله أن ضوء النار أضعفُ كثيرًا من ضوء القمر مع أن النار مضيئة في حد ذاتها. وهذا هو الأمر الذي بينه المسيح الموعود عليه السلام في شطر بيت له في مدح الرسول ﷺ:

تیرے بڑھنے سے قدم آگے بڑھایا ہم نے

(آئينه كمالات إسلام، الخزائن الروحانية المجلد ٥ ص ٢٢٦)

أي: يا شمسي الروحانية، لما كنتِ أكثرَ الشموس إضاءةً فإن قمرك أيضا قد سبق الشموسَ كلها نورًا.

وبناء على هذا، فإننا على يقين أن المسيح الموعود عليه السلام أفضلُ درجةً من الأنبياء كلهم إلا محمدا رسول الله ﷺ. لقد رأيتُ أن بعض الناس يقعون في شبهة حول مكانة المسيح الموعود عليه السلام ويقولون: كيف يكون أفضلَ من الشموس الروحانيين؟ فمثلاً كيف يكون المسيح الموعود عليه السلام أفضل من موسى أو غيره من الأنبياء – عليهم السلام– التشريعيين المبعوثين إلى أمم أخرى؟ والجواب أن هؤلاء أنبياء عظام بلا شك، إلا أن هناك فرقًا شاسعا بين هؤلاء الشموس وبين هذا القمر، أعني المسيح الموعود عليه السلام. لا شك أنه قمر، ولكنه قمرُ تلك الشمس التي كانت أشدَّ إضاءةً من جميع الشموس السابقة، فكان لزامًا أن يكون أقوى إنارةً من تلك الشموس. ويمكن فهم هذه القضية بالمثال التالي: هناك ألفُ مصباح لها ألفُ عاكس تعكس ضوءها، وبالمقابل ثمة مصباح واحد يساوي ضوؤه ألفَي مصباحٍ، ولا شك أن عاكس هذا المصباح القوي يكون أقوى إضاءةً من هذه المصابيح الألف. لنفترضْ أن قوة ضوء بعض هذه المصابيح خمسون شمعة، وقوة بعضها مائة شمعة، ومجموع قوة أضوائها هو مائتا ألف شمعة، ويكون إزاءها مصباح واحد تبلغ قوة ضوئه ثلاثمائة ألف شمعة، فلا شك أن عاكسه سيفوق بمفرده أضواءَ المصابيح الألف كلها، وهكذا فإنه يفوق تلك الشموس رغم كونه قمرا.

واعلم أنه قد يكون المراد من الشمس والقمر هنا الأُناس عموما، وقد يراد بهما شمس الإسلام وقمره؛ فإذا أريد بهما شمس الإسلام وقمره فالله تعالى يقصد بتقديم هاتين الشهادتين أن هذين الشخصين سيشكلان دليلا على صدق النبوءة الإبراهيمية، وسيكونان سببًا في جعل مكة مركزا عظيما. وإذا أُريد بهما الأُناس عمومًا، فالمعنى أن الإصلاح يتم بمثل هؤلاء الشخصيات، أما بدونهم فالإصلاح محال، وإذا لم يبعث الله شخصية كهذه الآن لبطلت النبوءة الإبراهيمية.

وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٦ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٧

شرح الكلمات:

طحاها: طحا الشيءَ: بسَطه ومدَّه. (الأقرب)

التفسير: يفسّر النحويون "ما" في هاتين الآيتين بمفهومين؛ فبعضهم يرى إنها "ما" الموصولة بمعنى "الذي"، وتقوم مقام "مَن"، والتقدير: والسماء ومَن بناها والأرض ومَن طحاها.. أي أننا نقدّم شهادةً السماءَ ومَن بناها والأرضَ ومَن طحاها. (إملاء ما منَّ به الرحمن، والكشاف)

لقد سبق أن بيّنتُ في تفسير سورة البلد أن القرآن الكريم قد استعمل "ما" بمعنى "مَن" أيضا؛ فمثلاً عندما وُلدت مريم قالت أُمُّها: رَبِّ، كنتُ أريد أن أَلِدَ ابنًا أنذره في سبيل دينك، ولكني قد وضعتُ أنثى، فقال لها الله تعالى في الجواب ﴿والله أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ﴾(آل عمران:٣٧)، مع أن المفروض بحسب القاعدة العامة أن يقال: "والله أعلم بمَن وضعتْ". كذلك قال الله تعالى للمؤمنين ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾(النساء:٤).. أي لا مانعَ أن تتزوجوا ما تحبّون من النساء: اثنتين أو ثلاثا أو أربعا. والمرأة من ذوي العقول، والأصل أن يُقال: "فانكِحُوا مَن طاب لكم"، ولكن الله تعالى يقول: ﴿فَانْكِحُوا مَا طابَ لَكُمْ﴾. والسؤال هنا: لماذا استخدم الله في المكانين "ما" بدل "مَن"، مع أن "مَن" موجودة في اللغة ولا صعوبه في استخدامها؟

لقد أجاب صاحب "الكشّاف" على ذلك بجواب لطيف، وأراه صحيحا، حيث قال: "وإنما أُوثرتْ على "مَنْ" لإرادة معنى الوصفية"، يعني أن "ما" استُعملتْ هنا مكان "مَن" للإشارة إلى صفة غالبة في المذكور. فالمراد من قوله تعالى ﴿واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.. أي أنه تعالى أعلم بأن هذه الأنثى تتصف بصفة الذكور أيضا وعلى أحسن صورة. وحيث إن الصفة تُعتبر من غير ذوي العقول، فذُكرتْ بـــ"ما" بدلاً مِن "مَن"، لأن "ما" تُستعمل لغير ذوي العقول، وذلك للإشارة إلى اتصاف هذا المذكور بهذه الصفة بشكل خاصّ. لو قال الله تعالى "والله أعلم بمن وضعت" لكان معنى ذلك أن الله يعلم أنها أنثى، وليس فيه أي إفادة، إذ هو يعلم في كل حين أأنثى هي أم ذكر، ولا داعي لأن يقال للمؤمن بالله تعالى إن الله أعلم بمن وضعتْ؛ لأنه يعلم مسبقا أن الله أعلم بذلك، ولكن الله تعالى قال هنا ﴿واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، للإشارة إلى أن أمّ مريم لا تعرف بما تتصف به بنتها من صفات عظيمة خارقة، إلا أن الله تعالى يعلمها، فاستخدم الله كلمة "ما" للإشارة إلى صفات مريم وقدراتها. أما لو قال الله تعالى (والله أعلم بمن وضعت) لكان المعنى أن الله يعلم أنها أنثى. فقول الله تعالى لأم مريم ﴿ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ يماثل المثل القائل: "عِشْ رَجَبًا ترى عَجَبًا".. أي عندما تكبر هذه البنت ستعرفين كم هي عظيمة. وكأن قوله تعالى ﴿واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ نبوءةٌ، أما لو قال الله تعالى "والله أعلم بمن وضعتْ" لكان مجردَ ذِكْر حدَثٍ.

كذلك فقوله تعالى ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ إشارة إلى فطرة الرجال بأنهم يتزوجون بدافع العواطف في معظم الأحيان، فلا ينظرون إلى المرأة نظرة شمولية، بل يتزوجونها بسبب صفة غالبة فيها، فكم منهم يتزوجها لجمالها غاضًا النظر عن نسبها، وغير مبال ما إذا كانت ستجلب الضرر لوالديه أو لأسرته أم لا؛ إنما يعشق جمالها فيتزوجها. وكثير منهم يتزوجونها لمالها، أو لنسبها العريق وأسرتها الكبيرة، أو لتعليمها العالي، أو لشهرة أخلاقها الفاضلة. باختصار، إن الرجل يتزوج المرأة لصفة غالبة فيها؛ فقوله تعالى ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ يبين أننا نعلم أنكم لا تتزوجون النساء آخذين في الحسبان كلّ ما فيهن من إيجابيات

وسلبيات، بل تعجبكم منهن الصفة الغالبة فيهن من حُسْنٍ أو مال أو نسب أو صيت أو خُلق أو دين. إذن، فهذه الآية تشير إلى فطرة الرجل بأنه لا يتزوج المرأة، بل كأنه يتزوج صفة غالبة فيها. وهذا ما قاله الرسول ﷺ: تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ (البخاري، كتاب النكاح). فهذا الحديث أيضًا يبين أن الرجل يتزوج المرأة معجبًا بصفة غالبة فيها، ولكن الرسول ﷺ يوصيك أنك ما دمتَ ستتزوجها لصفة غالبة فيها فعليك بأن تتزوجها لدينها.

إن مِن أعظم محاسن اللغة العربية أنها تبين معاني واسعة جديدة بتغيير بسيط في الكلمات، ولذلك أنزل الله وحيه الأخير بهذه اللغة. والواقع أنه تغلب على المرء أحيانًا صفةٌ تخفي صفاتِه الأخرى كليًّا. كانت أم مريم -عليها السلام - تراها مجرد بنت، ولكن الله تعالى كان يرى فيها صفتها المريمية. كذلك أحيانًا ينسى الرجلُ المرأةَ ككل غاضًا الطرف عن كل ما يتعلق بها، فيُعجَب بحسنها أو نسبها أو بادرة من بوادرها، فتصبح "ما" بدلاً مِن "مَن".

باختصار، حينما لا يريد القرآن التركيز على ذات الشيء بل على صفة غالبة فيه فإنه يستعمل "ما" بدل "مَن"، ولذلك قال الله تعالى هنا ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾.. تنبيهًا إلى أنه تعالى هو الصانع المبدع.

أما الذين لا يقبلون هذا المعنى فيقولون أن "ما" هنا مصدرية، ومنهم قتادة والمبرد والزجاج، إذ يرون أن "ما" لا تُستعمل لذوي العقول، بل تكون مصدرية في كل مكان. (البحر المحيط)

وإذا اعتبرناها هنا مصدرية فالمعنى: نُقسِم بالسماء وبصنعها.. أي نقدّم أمامكم صنع الله شهادةً. وكأن المعنى هو نفس المعنى السابق، ولكن التركيز هنا على الصنعة. أما بحسب القول الأول فعلى الصانع.

باختصار، إذا اعتبرنا (ما) بمعنى (مَن) فالمراد أننا نقدم أمامكم شهادةً السماءَ وصانعَها الذي يُذهَل المرءَ برؤية صنعته وتتجلّى له عظيم قدرته وجبروته ﷻ. فلأن التركيز هنا على صفة الله "الصانع" وعلى صنعةٍ له وهي "السماء" ورفعتها ومنافعها

من بين صنائعه الكثيرة في الكون، فقال الله تعالى ﴿وَمَا بَنَاهَا﴾، ولم يقل "ومَن بناها".

كذلك لو اعتبرنا ﴿ما﴾ مصدرية في قوله تعالى ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ فالمعنى: نقدّم الأرض وانبساطها شهادةً. أما إذا اعتبرنا ﴿ما﴾ بمعنى "مَن" فالمعنى: انظروا إلى الأرض وإلى مَن بسطها؛ حيث تدل على عظيم صنعته؛ ذلك أن كثيرا من الكواكب لا تصلح لعيش الإنسان فيها، فبعضها يفتقر إلى كمية الهواء اللازمة لحياة الإنسان والكافية لدخول رئته، وبعضها يكون فيه الهواء ولكنه ملوّث لا يصلح لحياة الإنسان، وبعضها لا يمكن استقرار الإنسان عليه إذ لا يستطيع المشي عليه بل يسقط فورا ويهلك. فكأن الله تعالى أشار بقوله ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ إلى إبداع صنعه هذا، وقال ألا ترون كيف جعلنا الأرض صالحة لعيشكم عليها. لا شك أنها منّةٌ إلهية عظيمة عليكم.

لقد رأيت أن بعض الناس يظنون خطأً أن كل أرض صالحة لعيش الإنسان، فيحتارون حين يقرءون في القرآن الكريم كلمات تشيد بهذه الصنعة الربانية المتقنة بأنه تعالى جعل الأرض صالحة لعيش الإنسان عليها، ويقولون ما الفائدة من هذا الذكر؟ سنعيش على الأرض؛ إن لم تكن هذه فغيرها. وقولهم هذا يدل أنهم يجهلون حقائق علم الفَلك تماما. فقد أثبتت البحوث الحديثة أن ليس كل كوكب صالحا لعيش الإنسان، بل هناك كواكب إذا وصل الإنسان إليها مات في لحظات. والقرآن الكريم هو أول مَن كشف هذا الأمر، مما يدل على أنه كلام الله تعالى. لقد نزل القرآن على شخص أُميّ، وفي وقت كان علمُ الفلك فيه محدودا جدا، وما كان بوسع الإنسان اكتشاف مثل هذه الأسرار، ولكن الله تعالى كشف هذا السرّ اللطيف في ذلك العصر بقوله ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾.. أي ليس كل أرض صالحة للعيش، فإذا رأيتم الأرض فأمعِنوا النظر في هذه الصنعة البديعة لهذا الصانع العظيم؛ حيث جعل الأرض صالحة لعيشكم وهيأ لكم فيها أسباب العيش كلها.

لقد اختُرع جهاز المطياف (جهاز مقياس الطيف) قبل سبعين سنة فقط، وكانت الدنيا قبل اختراعه تجهل الحقيقة التي ذكرتها آنفًا. وباختراع المطياف اكتشف

الفلكيون أن ليس كل كوكب صالحًا لعيش الإنسان عليه. لقد قاموا بتحليل ضوء كل كوكب بالمطياف وعرفوا ما فيه من عناصر ومعادن، وعرفوا عن فضائها ومناخها، وبناء على هذه المعلومات توصلوا إلى أن ليس كل كوكب صالحا لعيش الإنسان. بينما قال الله تعالى قبل اختراع المطياف بثلاثة عشر قرنا ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾.. أي أمعِنوا النظر في صنعنا هذا، فقد جعلنا الأرض صالحة لعيشكم عليها. لا يسعكم القول أن هناك أراضيَ مثلها، بل ستضطرون إلى القول أن هذه هي الأرض الوحيدة التي قد خلقها الله خصيصا لعيش الإنسان وازدهاره عليها. وكأن الله تعالى ينبه هنا إلى أن مِن صفته أنه كلما خلق شيئًا هيّأ له مناخه المناسب، فكان من المحال أن يخلق الإنسان ثم لا يجعل الأرض صالحة لعيشه عليها، أو أن يخلق الإنسان بحيث لا يستطيع الانتفاع من الأرض. هذا بعيد عن عظمة الله وصنعه. إذن فكأن الله تعالى يدعونا في هذه الآيات إلى التدبر في صنعه العظيم المتجلي في السماوات والأرض قائلاً: نقدّم أمامكم السماءَ وصَنْعَها، والأرضَ وانبساطها. انظروا إلى السماء ورفعتِها والأرضِ وقابليتِها لعيش الإنسان فيها، وستدركون أن الشخص الذي تؤيده شهادات السماء والأرض لا يمكن أن يكون كاذبا، أو كيف يمكن أن يخلق هذه السماء خلقًا محكَمًا معقّدًا ويجعل الأرض صالحة لعيش الإنسان عليها، ومع ذلك تكون هذه الصنعة عبثًا فلا يكون لخلق الإنسان أي غاية. ألا تروْن أن الله تعالى قد خلق الأرض خلقًا خاصا دون الكواكب الأخرى التي يستحيل أن يعيش الإنسان أو يتنفس أو يمشي عليها، بينما خلق الأرض صالحة للناس، فيتنفسون فيها، وتعمل فيها عقولهم بكفاءة، ويسدون مما فيها كل حاجاتهم، ولولا ذلك لما كان من الممكن أن تعيش عليها الحيوانات الأخرى ولا أن يعيش عليها الإنسان لوجود مختلف الغازات في جوها. لما كان الإنسان بحاجة إلى مناخ ينمو فيه عقله ويتطور فقد زوّد الله الأرض بما يساعده على العيش عليها وعلى التطور عقليًا بلا معيقات.

بضرب مثال السماء والأرض هنا قد نبهنا الله تعالى إلى أنه ما دام قد خلق هذا الكون الهائل وسخر كلّ شيء فيه لخدمة الإنسان، فكيف يمكن أن يخلقه بلا

حكمة ولا غاية. إن خلق الله السماءَ بإتقان من ناحية، ثم بَسْطَه للأرض لتكون ملائمة لعيش الإنسان عليها، وضبط النواميس الطبيعية في نظام واسع هائل.. لدليلٌ على أنه تعالى لم يخلقها عبثًا. كأنما يقول الله تعالى للناس إنكم لا تعتبرون أعمالكم وأشياءكم تافهةً وعبثًا مهما كانت عادية وبسيطة في الواقع، فكيف تعتبرون نظام هذا الكون الهائل عبثًا؟ لا بد لكم من الاعتراف أن الله تعالى كان قد خلق الكون لغاية عظيمة، وكان لا بد أن تظهر مشيئته هذه يومًا، وتتحقق الغاية التي من أجلها خلق نظام السماوات والأرض. فما دام الله تعالى قد زوّد السماء بالرفعة والفيوض والبركات المادية في العالم المادي من جهة، وجعل الأرض صالحة لعيش الإنسان عليها وتطوُّرِه عقليا من جهة أخرى، فكيف تتصورون أنه يهتم براحتكم الجسدية ولا يهتم براحتكم الروحانية؟ وكيف يمكن أن يخلق لمنافعكم المؤقتة هذا الكون الهائل ولا يقيم لمنافعكم الأبدية أي نظام؟ كلا، فإن الله الذي لم يهمل احتياجاتكم الجسديّة لن يهمل حاجاتكم الروحانية. لو تفكرتم في السماوات والأرض بموضوعية لعلمتم أن الله الذي قد هيّأ هذه الأسباب الكثيرة لراحة أجسادكم لا بد أن يهيئ ما يساعد على ارتقائكم الروحاني، لتعيشوا عيشة روحانيّة هانئة، ولا بد أن يجعل الأرض صالحة لعيشكم روحانيا كما جعلها صالحة لعيشكم جسديا، وإلا لقيلَ أنه اهتمّ بالجسد ولم يهتم بالروح، وهيأ الأسباب للرقي المادي دون الرقي الروحاني، وهذا يتنافى مع صفات الله تعالى. الواقع أن الله تعالى قد أقام إزاء النظام المادي نظاما روحانيا أيضا، وهيأ الأسباب لارتقاء الروح كما هيأها لارتقاء الجسد، ولكن الإنسان الجاهل ينظر إلى الماديات ويغضّ الطرف عن الروحانيات، مع أن من المحال أن يجعل الله الأرض صالحة لعيش الإنسان جسديا ولا يدبّر لعيشه عليها روحانيا. فإما أن يدّعوا أن الأرض ليست صالحة لعيش الإنسان ماديا، وهو ادعاء باطل حتمًا، أو أن يعترفوا بأنها صالحة لعيشه روحانيا أيضا. وبالفعل سترى الدنيا أن الذين يعارضون الإسلام اليوم سيسارعون لقبول سيادة محمد ﷺ غدًا، ومهما سعى الأعداء لمنع الناس من تصديقه إلا أن الفطرة الإنسانية مجبولة على الخير، وهذا الخير الفطري سوف يدفعهم للإيمان بمحمد ﷺ في النهاية. فكما أن

الأرض لا تقدر أن تظل في معزل عن فيوض السماء، كذلك يستحيل أن تبقى القلوب الإنسانية في معزل عن وحي السماء. ستتأثر به حتمًا في يوم من الأيام ليتم التشابه بين النظام المادي والروحاني.

والمفهوم الثاني لهذه الآية أن عليكم التفكر في السماء والأرض لتدركوا أن السماءَ خُلقتْ للإفاضة والأرضَ خُلقتْ للاستفاضة من فيوض السماء بالتوجه إليها، لذا فمن المحال أن تظهر منكم أيّة محاسن من دون قبول هذا الشخص النوراني السماوي.. محمد رسول الله ﷺ؛ لأن عمل السماء لا يقوم به إلا السماء، وليس للأرض بد من أن تتوجه إلى السماء وتتقبل فيوضها لتنال الحياة. علمًا أن كلمة السماء في القرآن لا تعني هذا الجو الذي هو فوقنا، بل تعني كلّ النجوم والأجرام والأضواء وغيرها. فالله تعالى يقول هنا للكافرين: كما أن الأرض لا تنفع شيئا من دون السماء، كذلك لا يمكن أن تتحلّوا بأي محاسن من دون محمد رسول الله ﷺ، وكما أن الأرض لا يسعها رفض فيوض السماء، كذلك لا يسعكم رفض فيوض محمد الروحانية، فأنّى للأرض أن ترفض ضوء الشمس إذا ما تقابلتا؟ كلا، بل لا بد لها أن تستضيء من ضوء الشمس، كذلك ما دام محمد قد ظهر فلا يسع الدنيا إنكاره فترة طويلة، بل ستؤمن به في نهاية المطاف حتمًا. وقد جاء شرح هذا الموضوع في الآية التالية.

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

سوّى: سوَّى الشيءَ تسويةً: جعَله سَوِيًّا، تقول: سوَّيتُ المعوجَّ فما استوى. وسوّاه: صنَعه مستويًا. (الأقرب)

التفسير: لهذه الآية أيضا مفهومان كالآية السابقة؛ أولهما أننا نقدم شهادةً النفسَ الإنسانية ومَن جعلها معتدلةَ القوى، إذ التسوية إزالةُ عوج الشيء وجعْلُه معتدلا. لقد بيّن الله تعالى في الآية السابقة أنه جعل الأرض صالحة لعيش الإنسان،

أما الآن فبيّن أنه قام بتسوية نفس الإنسان وزوّدها بقوة الاعتدال فالارتقاء. يقول الله تعالى إن في أنفسكم شهادةً أننا قمنا بتسويتها مثلما بسطنا الأرض ومهدناها، ولولا ذلك لجاز لكم القول إن مثال الأرض لا ينطبق عليكم، فما دامت النفس الإنسانية مزودة بقدرة الارتقاء بعد الاعتدال فلا يجوز لكم أن تدّعوا عكس ذلك؛ فإن النفس الإنسانية نفسها شاهدةٌ على أنها بحاجة إلى نور السماء كما أن الأرض بحاجة إلى ضوء السماء. تلاحظون دائمًا أنه إذا انقطع مطر السماء طويلاً فَقَدَت الأرضُ خضرتها ونضارتها، وذبلت أشجارها، وجفّت مياهها، فنفس الأرض التي كانت تسرّ الأعين بنضارتها وطراوتها تصبح لطول انقطاع مطر السماء قفرًا ويبابًا يستوحشها الإنسان. هذا هو حال العالم الروحاني أيضا؛ فإذا لم ينـــزل ماء وحي السماء لفترة طويلة يبست كل زروع الروحانية وانتهت خضرتها، وتوقف الارتقاء العقلي أيضا، وعندها ينكشف للعيان أن القلوب الإنسانية وثيقة الصلة بالوحي كما أن الأرض وثيقة الصلة بالسماء. الواقع أن السماء إذا لم تقم بتنقية الهواء على الأرض لاستحال عيش الإنسان عليها؛ لأنه لو اجتمع الهواء الفاسد الذي تلفظه الرئة من خلال التنفس اضطر الإنسان لأن يتنفس هذا الهواء الفاسد مرة تلو أخرى، ولكن الله تعالى قد جعل قانونًا طبيعيًّا يرتفع به الهواء الساخن ليأخذ مكانه هواء بارد نقي من الشوائب الضارة. فمثلاً لو كان في مكان مغلق ١٥٠٠ شخص ولم يرتفع الهواء الذي تنفسوه ليحلّ مكانه هواء نقي، لماتوا في دقائق، ولكن بسبب هذا القانون الرباني لا يشعر أحد أنه يفسد الهواء بأنفاسه وأن السماء لا تبرح تقوم بتنقية الهواء الفاسد أولاً بأول. الواقع أنه يجتمع أحيانًا أناس أكثر من اللازم في مكان مغلق ومع ذلك لا يتضررون بتنفسهم، لأن السماء تأخذ الهواء الذي يلوثونه فيتيسر لهم الهواء النقي للتنفس. مما يدل على أن الأرض لا يمكن لها فعل شيء مستغنيةً عن السماء.

والآن أخبر الله تعالى أن النفس الإنسانية أيضا مزودة بشتى القوى مثل الأرض؛ إذ يوجد في الإنسان طموح للتقدم وعطشٌ للصدق وندامةٌ على الخطأ وتوْقٌ لمعرفة كُنْهِ كل شيء. فبمجرد أن يصبح المولود الصغير قادرا على الكلام يبدأ بإزعاج

الوالدين من كثرة السؤال، فيقول: ما هذا؟ وما ذاك؟ فإذا رأى مصباحا قال ما هذا، وإذا رأى قطًّا سأل ما هذا، وإذا رأى كلبا قال ما هذا؟ وكلما رأى شيئا جديدا سأل أمه أو أباه عنه حتما. لقد أُلِّفتْ في أوروبا مجلدات تحتوي أجوبة على أسئلة الصغار كهذه. إنهم يقولون إن الزمن الحقيقي لنماء عقل المولود هو زمن كثرة أسئلته، ولكن الآباء لا يعرفون الأجوبة الصحيحة لأسئلته فيُلْهُونه عن هذه الأسئلة بالحديث عن أمور أخرى، فإذا سأل عن الكهرباء مثلاً فلا يعرف كل شخص الجوابَ، فكثير منهم يسكتون عند سؤاله أو يُحاولون إسكاته قائلين إنك لا تعرف هذا، إنه مصباح مضيء. ولأن الآباء لا يعلمون الأجوبة الصحيحة لمثل هذه الأسئلة فقد ألَّف الغربيون كتبًا تبيّن هذه الأمور العلمية العظيمة بكلمات بسيطة، ليتمكن الآباء من الرد على أسئلة أطفالهم ردًّا صحيحا مفهومًا بسهولة.

ثم إن من عادة الطفل أنه يأخذ في البكاء إذا قلتَ له شيئًا خطأ، فإذا قلت لطفلك عن الخبز مثلاً إنه ليس بخبز، صرخ وبكى، أو إذا كان مريضا وقلت له أنت لست مريضا، بكى أيضا؛ ذلك لأنه يحب بفطرته أن يقال له القول الحق. كذلك من عادة الطفل أنه إذا أُعطي لعبة كسَرها بعد قليل، ذلك لأنه يريد أن يعرف كُنْهَها وحقيقتَها، وعندما لا يعرف كنهها بشكلها يظن أن كُنْهَها داخلها، فيكسرها بحثًا عن حقيقتها، ثم يأخذ في البكاء أيضًا؛ وعندما يرى الكبار هذا المشهد يقولون لقد كسرها بنفسه فلماذا أخذ بالبكاء الآن! إنهم لا يدرون أنه يبكي لأنه لم يجد بداخلها شيئا مع أنه كسرها ليعرف كنهها وما بداخلها. إنه لا يبكي لكسر اللعبة، فقد كسرها بنفسه، ولكنه كسرها لمعرفة حقيقتها، وعندما لم يدرك حقيقتها أخذ بالبكاء. إنه يفكر أنه قد ضيع اللعبة و لم يعرف حقيقتها أيضا.

ثم عندما يكبر يصبح مشغوفا بشتى العلوم. والحق أن كل طفل يولع بعلمٍ يناسب مزاجه وطبيعته، فبعض الأطفال عندما يخرج من البيت يمرّ على حدّاد فيقف عنده ويراه كيف يعمل، وبعضهم يمر على النجار أو البنّاء وغيرهما، فينظر إلى عمله باهتمام بالغ، وبالتالي يحب بعضهم بحسب مزاجه الحدادة وبعضهم النجارة وبعضهم البناء وغير ذلك من أعمال. عندنا خادمة ابنُها يحب أن يكون ناسخا

للكتب عندما يكبر، ويبدو أنه قد رأى ناسخا وهو يكتب كتابة جميلة، فقرر هذا الطفل أنه سيكتب مثله كتابة جميلة عندما يكبر.

إن من أكبر أسباب الدمار في بلادنا أن الآباء لا يراعون مزاج أطفالهم وطبائعهم، فيُجبروهم على مِهنٍ لا تناسب أمزجتهم ولا يرغبون فيها، فلا يحرزون في عملهم تقدمًا رغم أنهم ينفدون أعمارهم فيه. من واجب الوالدين أن يهيئوا العمل للأولاد بحسب مزاجهم وطبائعم، أو يربّوهم منذ الصغر بحيث يكونون قادرين على القيام بأعمال يريدونها لهم. ولكن الآباء في بلادنا لا يربون الأولاد تربية تؤهلهم للقيام بأعمال يريدونها لهم، كما لا يراعون مزاج الأولاد وطبائعهم ورغباتهم عند اختيار العمل لهم، فيصبح الولد بين رغبتيْن متناقضتين؛ فإذا كبُر كان في حرب نفسانية، لأن طبعه خلاف ما أُعطيَ من عمل، فيصبح بليدا. هناك طريقان اثنان فقط لإصلاح الأجيال القادمة ورقي الأمم، فإما أن نصلح مزاج أولادنا بالوعظ والنصح فيفكروا منذ الصغر مثل تفكيرنا، ويرغبوا فيما نرغب فيه، أما إذا تركناهم أحرارا و لم نسعَ لخلق المزاج الصحيح الملائم لرغباتنا فالخيار الثاني هو أن نراعي مزاجهم فيما يختارونه من عمل أو حرفة، فإذا كان أحدهم يريد أن يكون مهندسا فلنسمح له بذلك، وإذا كان يريد تعلُّم الطب فلنجعلْه طبيبا، وإذا كان يحب التدريس فلا نمانع من أن يكون معلِّما، ذلك لأننا لم نسعَ أن نخلق فيه شخصيتنا، والآن لو رفضنا مزاجه الشخصي فمَثَلُنا كمَثَلِ طفل يشتري لعبة ثم يكسرها، ومع ذلك لا يدرك كنهها، وسنُعتبر في هذه الحال ممن ضيّع فردًا أو جزءًا نافعًا للأمة.

ثم إننا نرى أن شغف الإنسان بمعرفة شتى العلوم يزداد لدرجة أنه يحاول أحيانًا البحث عن طرق معرفة الغيب بعقله. كم أحرز الغرب من تقدم علمي حتى إنهم أنكروا الله تعالى وتركوا الدين كلية، ولكن من ناحية أخرى قد بلغ بهم الحمق أن أحدًا لو قال إنه يعلم أخبار المستقبل برؤية الكف جلسوا أمامه مادين إليه أيديهم ليخبرهم عما يخفي لهم المستقبل، وبينهم كبار البروفيسورات والمحامين والأطباء والمهندسين. وهذا يبين أن الإنسان بفطرته يريد معرفة حقيقة العالم وسرّ الكون.

لقد أنكر هؤلاء الله تعالى مغرورين بعلمهم الباطل، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على ما يوجد فيهم من عطش فطري للبحث عن مصدر هذا الكون. إن مَدَّ المرء كَفَّه إلى الآخرين حُبًا لمعرفة الغيب لدليلٌ على أنه لا يجد الطمأنينة من هذا العالم المادي، ولذلك يظل دائم القلق للحصول على علم ما وراء الطبيعة. وهذا العطش الفطري يدفعه إلى طريق مرةً وإلى آخر مرةً أخرى. فيعكف بعضهم على قراءة الكفّ، وبعضهم على أوراق اللعب، وبعضهم على النظر في النجوم، وبعضهم على وضع الخطوط على الأرض، وبعضهم على ضرب حبات السبحة، فإذا خرجت الحباتُ وترًا تفاءلَ بالنجاة، وإذا خرجت الحبات شفعًا تشاءمَ، بينما ينهمك بعضهم في إلقاء القرعة، وبعضهم في رمي الأزلام والسهام.

باختصار، كل إنسان يرغب في معرفة أسرار الكون بغض النظر عما إذا كان الطريق الذي يختاره لذلك صحيحا أم خطأ. لقد ذهبتُ إلى كراتشي مرة فعرفتُ أن سعر القطن أخذ يرتفع في السوق، مع أنه لم يكن هناك آثار لارتفاعه مطلقا، ولكن الأسعار ارتفعت فعلاً عكس المتوقع، فسألتُ الناس عن سبب ذلك فقالوا: أن ناسكًا هندوسيا جاء هنا مِن أمْرِتْسَر، فسأله التجار عن أحوال المستقبل، فقال: سيرتفع سعر القطن، فأخذ التجار كلهم يشترون القطن، فارتفع سعره. وحيث إن السعر ارتفع بدون أي سبب حقيقي وراءه، فلم يدُمْ الأمر إلا أيامًا، حيث انخفض سعر القطن جدا حتى أفلس كثير من التجار. ذلك أن القاعدة الطبيعية لارتفاع سعر بضاعة ما أن يكون العرض قليلا والطلب كثيرا، أما إذا كانت البضاعة كثيرة وصار الطلب عليها كثيرًا لسبب عابر، فإن ارتفاع سعرها يكون مؤقتا، ولذلك أصيب كثير من التجار في كراتشي بالكساد نتيجة الارتفاع العابر في سعر القطن، لأن أصحاب المصانع من مومباي ونيويورك ولانكاشاير رفضوا شراء القطن بهذا السعر.

كان من الحمق والغباء أن يستطلعوا أخبار المستقبل من ناسك هندوسي ثم يعملوا بما أخبرهم من باطل، وقد ارتكبوا هذه الحماقة لأن الإنسان يريد معرفة الغيب بطريق أو آخر، فيختار لذلك أحيانا طرقًا حمقاء مذهلة.

باختصار، إن من فطرة الإنسان البحث عن أسرار الكون، ومهما كانت هذه العلوم التي يلجأون إليها باطلة إلا أنها شهادةٌ قاطعة على أن في الإنسان عطشًا فطريًّا لمعرفة ما وراء الطبيعة، فلا يقر له قرار بدونها، فيولع بمختلف البحوث العلمية المادية، فحينًا ينقِّب في عالم الفلك، فيقوم بتحليل الأضواء والنظر في مجرى النجوم سعيًا لمعرفة أحوال المستقبل. ثم يتوجه بعضهم إلى الأرض فينقّب عن مختلف المعادن بحثًا عن الكنوز والخزائن من مناجم البرونز والحديد والذهب والفضة وما إلى ذلك. وبعضهم ينهمك في البحوث لمعرفة خواص النبات والعقاقير والمعادن لاستعمالها كدواء. وبعضهم يحاول السيطرة على الهواء والماء والكهرباء والنار والدخان. وبعضهم يسعى ليسيطر على الجن، فلو قال له أحد كذبًا إنه كاد أن يسيطر على الجن بقراءة وِرْدَ كذا، جُنَّ جنونه للسيطرة على الجن ويقول في نفسه إذا كان هذا لم يتمكن من السيطرة على الجن، فأنا سأسيطر عليهم، فيجلس في ميدان ويعمل حوله خطوطًا ويردد كلمات ظنًّا منه أنه سيجعل الجن في قبضته بهذه الطريقة. والبعض يخدع الناس بقوله إن لديه علم الكيمياء الذي كاد يحوّل به التراب ذهبًا★. فلو كانت التطورات المادية الحاصلة في الدنيا كافية للإنسان لما انشغل العاقل والجاهل في هذه الجهود. لماذا نرى عُقلاء أوروبا مشغولين في هذه الجهود مثل جهال الهند؟ هذا يدل دلالة واضحة أن العلوم المادية البحتة لا تجلب الطمأنينة لقلب الإنسان، بل يريد الإنسان البحث عن معرفة ما وراء الطبيعة.

باختصار، إن هذه الجهود المبذولة للتنقيب عن كل صغيرة وكبيرة في هذا العالم المادي دليل على أن في الإنسان رغبة فطرية عارمة في البحث عن قُوة عُليا، إلا أن هذه الرغبة تختفي أحيانًا تحت العقل اللاشعوري نتيجة الأعباء المادية. أعني أن الإنسان يختفي عنه أحيانًا أن الله موجود وأنه خالق الكون، ولكن جهوده هذه تدل على أنه يبحث عن الله تعالى من حيث لا يدري. لقد لوحظ أن الإنسان يحاول في

★ هذا ما كان يُعرَف تاريخيًا بحَجَر الفلاسفة، حيث اعتُقد أن هناك تركيبة كيميائية يمكن أن تحوِّل المعادن الرخيصة إلى ذهب. (المترجم)

حالة اليقظة كبت ما يختلج في قلبه من أفكار، ولكنه حين يخلد إلى النوم تظهر أفكاره هذه عبر هذيانه أحيانا. فمثلا هناك كثير من السارقين الذين لا يعرف الناس عن سرقاتهم شيئًا، ولكنهم يخافون طوال النهار أن يعلم أحد بما فعلوا، فيهذون في نومهم؛ فيقول بعضهم مثلاً: لا تذهبْ في تلك الزاوية من البيت لأن فيها أموالي، أو يقول: حذار أن تعلم الشرطة بهذا الأمر، أو يقول: لقد سلبتُ فلانًا، فيعرف الناس فورا أنه هو السارق؛ وبعد تحري الأمر يجدون عنده المسروقات. كذلك يسيطر بعض القتلة على نفسه في حالة اليقظة ولكنه يهذي وقت النوم فيقول مرة: ها قد جاءت روح فلان، وتارة يقول: لماذا تضربونني؟ اعفوا عني، فإني لن أعود لمثلها أبدا، فيسمع الجيران هذيانه ويعرفون أنه هو القاتل.

إذن، يكون في العقل الباطن للإنسان حقائق وأسرار كثيرة خفية، وعندما يغفل عقله الشعوري يكشف عقله الباطن هذه الحقائق والأسرار للناس، وكما أن المجرمين يبوحون بكثير من أسرارهم خلال النوم أو الأحلام أو تحت تأثير التنويم المغناطيسي، كذلك كثير من الناس ينكرون وجود الله في الدنيا، ولكن أحوال حياتهم تكشف ما في عقلهم الباطن من أسرار وكيفيات عن الله تعالى. إنهم يظنون أنهم قد نجحوا في محو رغبة البحث عن كائن خفي من قلوبهم، ولكن أحوالهم تكشف بجلاء أنهم فشلوا في ذلك، كل ما في الأمر أنهم نجحوا في كبْت هذه الرغبة مؤقتا، وليس على الدوام. وحيث إن هذه الرغبة تظل في العقل الباطن في معظم الأحيان فلا يقرون بوجودها، إنما مَثَلُهم كمثل الطفل الذي لم يدرك كُنْهَ لعبتِه فكسرها، فهؤلاء أيضا ينكرون وجود الخالق مَلَلاً وضجرا، فيقولون لقد خُلق الكون بنفسه. فما أكثرَ ما نرى أن الطفل حين يكسر لعبته يقول إخفاء لندمه: لا أريد هذه اللعبة. والحق أنه يعبر بذلك عن غضبه وملله وضجره؛ إذ إنه كسر اللعبة لمعرفة كنهها ففشل. وهذا هو حال الملحدين أيضا، فإنهم ينكرون وجود البارئ تعالى إخفاءً لندمهم، وإلا فإن الشهادة على وجوده تعالى موجودة في عقلهم الباطن، حيث يبحثون عنه هنا وهناك، ولكنهم حين لا يجدونه ينكرونه، ويقولون: نحن لسنا بحاجة إلى أي إله، شأنَ الطفل الذين يقول: لا أريد هذه اللعبة. تقول الأم

لطفلها أحيانا على سبيل المزاح: لن أعطيك كذا، فيقول الطفل عابسا: وأنا لا أريده، ثم يمدّ إليه عينه طمعًا في اقتنائه، كذلك حال الإنسان فإنه يقول في بعض الأحيان إخفاءً لندمه: لستُ بحاجة إلى أي إله، ولكن قوله هذا لا يشفي غليله، إذ إن جهوده نفسها دليل على بطلان استنتاجه هذا. الواقع أن قول المرء عن شيء أنه وُجد بنفسه يعني أنه قد بلغ منتهى هذا الشيء، فمثلاً لو أن أحدًا مشى على ضفة نهر مسافة ميلين فقط، ثم ادعى أنه لا منبع لهذا النهر، فلا شك أن قوله يكون دليلا على حمقه، لأنه لو ظل يمشي لوجد منبعه في النهاية، كذلك من الحماقة أن يقول المرء قبل معرفة السبب النهائي لوجود الكون أن لا خالق له، إذ لا يمكن التوصل إلى هذه النتيجة إلا بعد معرفة منتهى الأسباب لا قبله. ولو كان استنتاجه هذا صحيحا فكان ينبغي أن يتوقف عن المزيد من التحسس والبحث، ولكنه مستمر في المزيد من البحث، بل قد تمت الآن اكتشافات جديدة، وأصبحت هذه البحوث عن خلق الكون بمنـــزلة نهر جار، مما يعني أن الناس لم يصلوا بعد إلى منبعه، وما داموا لم يصلوا إلى المنبع فكيف يحق لهم تحديده؟ وهذه هي الحقيقة التي قد أشار الله تعالى إليها هنا بقوله ﴿وَنَفْسٍ وَما سوَّاها﴾.. أي أننا زوّدناكم بقوى عالية وأودعناكم كفاءاتٍ سامية تمكّنكم من عبور "جسر الصراط". والواضح أنه لا يقدر على عبور الصراط إلا مَن يقدر على تجنب السقوط يمينًا وشمالا، وعلى المضي قُدُما أيضًا. وكأن الله تعالى يعلن هنا أنه زوّد الإنسان بقوة التقدّم كما زوّده بالقدرة على عدم الميل يمينا وشمالا؛ وما دام قد جعل الإنسانَ معتدل القوى والقدرات على هذا النحو، فكيف يمكن أن لا يمهد له طريقًا ولا يبلّغه غايته. إن غاية الإنسان هو الله تعالى، ولا يمكن أن يصلها إلا إذا سار قدمًا دون أن يميل يمينا وشمالا، ذلك لأن الشخص المعتدل القوى هو مَن لا يميل إلى ناحية واحدة، فما دام الله تعالى قد خلق الإنسان معتدل القوى فهذا يعني أنه قادر على تفادي السقوط يمنة ويسرة. والحق أن نجاح الإنسان كله إنما هو في أن يمضي قدما متفاديا السقوط في الحفر على يمينه أو شماله، ولا يتوقف حتى يصل إلى غايته. وهذان الأمران هما روح الدين ولبّه، وهذه هي الحقيقة التي بيّنها المسيح الموعود عليه السلام بقوله إن أكبر أهداف الدين أن

يكون الإنسان على صلة متينة مع الله تعالى ومع بني جنسه أيضا، فلا يقصّر في أداء حقوق الله ولا حقوق العباد. (الملفوظات المجلد الثاني ص ٨٥)

خلاصة القول إن الله تعالى قد أعطى الإنسان نفسًا معتدلة القوى قادرة على التقدم بحيث يصل إلى غايته العليا، كما زوده بقوة تحميه من السقوط يمنةً ويسرة مما يساعده على تكميل أخلاقه، فيعرف ما يجب عليه فعله وما لا يجب، وما هو نافع له وما هو ضار. وما دام الإنسان مزودا بهذه القوى كلها، فكيف ينكرون ضرورة هادٍ أو معلِّم له؟

أما إذا اعتبرنا (ما) في قوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ مصدرية فالمعنى أن الإنسان معتدل القوى، وهذا يوجب ضرورة هادٍ له.. وهذا يعني أن الدليل هو نفسه، الفارق الوحيد هو تغيير زاوية النظر فقط؛ ذلك أننا اعتبرنا (ما) في قوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ بمعنى (مَن) عند بيان المفهوم الأول الذي كان: كيف لا يهتم بهدي الإنسان مَن خلقه معتدل القوى؟ وبتعبير آخر: كيف يمكن للذي خلق الإنسان بهذه الصفات والكفاءات أن لا يصف له العلاج لمشاكله ولا يهيئ له الهدى؟ أما في حالة اعتبار (ما) مصدرية فالمعنى: كيف يمكن أن يكون الإنسان مزودا بهذه القوى العظيمة ومع ذلك لا تتاح الفرصة لانكشافها وظهورها؟ فأول المفهوميْن هو بالنظر إلى النفس، والمفهوم الثاني هو بالنظر إلى خالقها.

والمفهوم الثالث لقوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ هو أننا نقدم شهادةً تلك النفسَ التي هي عظيمة والتي تتوجه إليها الأنظار تلقائيا، بمعنى أننا نقدم شهادةً النفسَ الكاملة في كل زمن، وكما نقدّم رَبَّها الذي خلقها. والنفس هنا نكرة، والتنوين في العربية يفيد التعظيم والتفخيم أيضا♦. فليس المراد مِن ﴿نَفْس﴾ هنا كل نفس، بل نفسا عظيمة، والمعنى أننا نذكّركم هنا بذلك الإنسان العظيم الذي يبلغ من العظمة بحيث يشير إليه كل بنان تلقائيا وإن لم يُذكَر اسمه.

♦ انظرْ "الجدول في إعراب القرآن" لمحمود صافي، قوله تعالى: أولئك على هُدًى من ربهم. (المترجم)

والثابت من آيات أخرى من القرآن أن كل مَن يُبعث مِن الله تعالى في أي عصر يكون محطّ الأنظار دائمًا حتى قبل دعواه، ويعترف الجميع أنه الوحيد الذي يمكن أن ينقذ القوم. فمثلاً يخبرنا الله تعالى أن قوم صالح عليه السلام قالوا له ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾(هود:٦٣).. أي يا صالح كنا نظنك على خُلق عظيم ومزوَّدًا بقوة العمل الخارقة ومهتمًا برقي الأمة، وكنا نعقد عليك آمالا كبيرة بأنك سترفع أمتك من الحضيض إلى القمة، ولكنك خيّبت آمالنا، وتَبيَّن أنه لا خير فيك، إذ بدأتَ تأمرنا أن نترك ما يفعل آباؤنا وألا نعبد الأصنام طاعةً لأوامرك. وواضح هنا أن ما اعتبره صالح عليه السلام مدعاةً لازدهار قومه لم يروه سبيلاً لرقيهم. كانوا يرون أن سبل رقيهم هي الكذب والخداع والبعد عن الله، بينما كان صالح عليه السلام يرى أن سبيل رقيهم هو الصدق والهدى والعودة إلى الله تعالى. على أية حال، كان صالح عليه السلام معقد آمال قومه حتما، وكانوا مصيبين في ذلك، غير أن ما كانوا يرونه سبب زوالهم أو انحطاطهم لم يكن صحيحا.

والمشهد نفسه نراه في زمن النبي ﷺ وفي زمن المسيح الموعود عليه السلام. فقد كتب الصوفي أحمد جان اللدهيانوي رضي الله عنه -وهو حمو الخليفة الأول رضي الله عنه- إلى المسيح الموعود عليه السلام حتى قبل دعواه:

ہم مریضوں کی ہے تمہی پہ نظر

تم مسیحا بنو خدا کے لئے

(حيات أحمد ص ٢١)

أي نحن المرضى ننظر إليك، فبالله كُنْ مسيحا لنا. وهذا يعني أن حضرته عليه السلام كان محط أنظار الدنيا منذ ذلك الوقت، وكل بنان كان يشير إليه.

وقد قال المولوي برهان الدين الجهلمي رضي الله عنه الصحابي المخلص للمسيح عليه السلام: لما سمعت عن المسيح الموعود عليه السلام في البداية بأنه ظهر في قرية في البنجاب، وأن ازدهار الإسلام منوط به حيث يردُّ على مطاعن خصوم الإسلام من نصارى وهندوس وغيرهم، اشتقتُ لرؤيته، فجئت إلى قاديان، فعلمتُ أن المسيح الموعود

عليه السلام قد سافر إلى غورْداسبور بشأن قضية مرفوعة في المحكمة، فجئتُ إلى غورْداسبور وسألت الناس عن مكان إقامته، فعرفتُ أنه مقيم في نُزُلٍ، فوصلتُ إلى النُزل. فوجدتُ الحافظ حامد علي يحرس غرفة حضرته عليه السلام، فقلت له: جئتُ لإلقاء نظرة على حضرة الميرزا، فساعِدْني في ذلك، فقال: هذا ليس وقت اللقاء، لأنه مشغولٌ في كتابة إعلان هام. فتوسلتُ إليه كثيرا، ولكنه لم يُدخلني عليه، فجلست يائسا، وقلت في نفسي: سوف أنتظر حتى يذهب الحافظ لبعض حاجته، فأدخُل بدون إذنه على المسيح الموعود عليه السلام وأرفع ستار الباب وألقي نظرة عليه عليه السلام. فذهب الحافظ بعد قليل لبعض شأنه، فرفعت الستارة، ونظرت داخل الغرفة خلسة، فرأيت المسيح الموعود عليه السلام يمشي في الغرفة بسرعة حاملا في يده ورقة، وكان ظهره إلى الباب. وكنتُ أظن أنه سيرجع ببطء وسوف أرى وجهه بتمعن، ولكنه عليه السلام رجع بسرعة لأنه كان يمشي سريعًا، فارتعبتُ وفررتُ من هناك وقلت في نفسي: لا شك أنه إنسان صادق، والماشي بهذه السرعة لا بد أن يذهب بعيدا. (جريدة "الحَكَم" ٧ إلى ١٤ يونيو ١٩٤٣ ص ٩)

باختصار، إن من سنة الله المستمرة أن الذي يكون النفس الكاملة في عصره يُشار إليه بالبنان تلقائيا، ويقول الناس على الملأ أن هذا سيُحدث ثورة في الدنيا حتمًا. ولذلك يقول الله تعالى هنا إننا نقدم النفس الكاملة في كل عصر ونقدِّم مَن خلَقها.. أو المعنى أننا نقدم شهادةً النفسَ الكاملة في هذا العصر.. أي محمدًا رسول الله ﷺ، فكأن الله تعالى يقول: نقدّم أمامكم شهادةً هذه النفسَ الكاملة ومَن خلقها، وكذلك أظلالَها.

إن دراسة حياة الرسول ﷺ تكشف لنا أنه كان نفسًا كاملة في جميع شُعب الحياة. فبينما كان الآخرون ينفقون أموالهم على أنفسهم، كان رسول الله ﷺ ينفق جميع أمواله لمصلحة الأمة. وبينما كانوا يقضون أوقاتهم في لعب الميسر وشرب الخمر وغيرهما من الموبقات، كان ﷺ يقضي كل أوقاته للنهوض بقومه. وبينما كانوا يضيعون أوقاتهم في الجهل، كان ﷺ يقضي أوقاته في تحصيل العلم. وبينما كانوا يسخِّرون عقولهم في مشاغل الدنيا، كان ﷺ يسخر عقله في طاعة أوامر الله

وفي إزالة معاناة بني جنسه. هذا ما فعله الرسول ﷺ قبل دعوى النبوة، أما بعد إعلانه النبوة بأمر الله تعالى فصارت كل أعماله جلية للناس بصورة عمليّة، فرأوا أنه إذا قاد جيشًا كان أفضل قائد، وإذا قضى كان أفضل قاضٍ، وإذا أفتى كان أفضل مفتٍ، وإذا عاشر أهل بيته كان أفضل زوج، وإذا تعامل مع أولاده كان أفضل أب، وإذا كان مع الأصدقاء ثبت أنه أفضل صديق. فما من مجال من مجالات الحياة إلا وفاق فيه القوم كلهم، وبلغ الذروة في المحاسن كلها. وهكذا هيّأ للدنيا دليلاً لا يُنقَض على أنه النفس الكاملة. ويقدم الله تعالى هنا هذه النفس الكاملة شهادةً ويقول للناس: هل يمكن أن يُهزَم صاحب هذه الخصال؟ من الممكن أن يُهزَم مَن بلغ الذروة في خُلُق أو اثنين، ولكن كيف يمكن أن ينهزم من هو كامل في كل خُلُق ومجال وينتصر خصومه؟ لو كان خصومه أكثرَ كفاءة فانتصارهم عليه مفهوم، ولكن كيف ينتصرون على محمد ﷺ وليس هناك أي مجال للمقارنة بين كفاءاته وكفاءاتهم؟

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾

التفسير: إذا اعتبرنا (ما) في الآية السابقة بمعنى (مَن) فضمير الغائب المذكور في قوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ يرجع إلى (ما)، أما إذا اعتبرناها مصدرية، فالضمير يُعيَّن بالمعنى.

وقد اعترض الذين قالوا إن (ما) هنا بمعنى (مَن) على الذين اعتبروها مصدرية قائلين: إذا كان موقفكم صحيحًا فمَن هو الفاعل في قوله تعالى ﴿أَلْهَمَهَا﴾، فالمصدر لا يكون فاعلا، والتسوية لا تُنـــزِل الوحي، وإنما يُنْزِله إله قادر قوي؟

غير أن الفريق الآخر أيضا علماء كبار، فأجابوهم بأن قولكم باطل، إذ يرجع الضمير بالمعنى في اللغة العربية بكثرة، فضمير الفاعل هنا يرجع بالمعنى إلى الفاعل لفعل بناء السماء وطحي الأرض وتسوية النفس.. أي إلى الله تعالى.

ومفهوم الآية أن الله تعالى لم يتخلَّ عن النفس البشرية بعد إقامة نظام السماء والأرض وتزويد هذه النفس بقواها، بل أودعَها من الإحساس بالفجور والتقوى ما لا يمكن غضّ النظر عنه.

فسواء اعتبرنا (ما) هنا مصدرية أو بمعنى (مَن)، فإن مفهوم الآية هو أن الله تعالى قد خلق في كل إنسان نفسًا لوّامة، وجعل فيه ما يعتبر به بعض الأمور حسنة وبعضها سيئة.

وليكن معلوما هنا أن هناك قضية قد أخطأ كثير من الناس في فهمها، فبدلاً من أن يقولوا إن كل إنسان يعتبر بعض الأمور حسنة وبعضها سيئة، يقولون: إن كل إنسان يعتبر السيئة سيئةً كالقتل أو الكذب أو السلب، فيقول المعترض: كيف تقول إن كل إنسان يعتبر الكذب سيئا، مع أن كثيرا من الناس يقولون إنه لا مناص من الكذب، فلو كان قولك صحيحا فكان ينبغي أن يعتبر كل إنسان الكذب أو القتل أمرا سيئا.

الأمر الواقع أن كثيرا من الناس يكذبون في الدنيا، ولما كانت نفوسهم تفتقر إلى الهدى يمسخ كذبهم المستمر فطرتَهم السليمة، حتى يقولوا إنه لا مناص لهم من الكذب. أو خذوا مثلا القسوة، فكثير من الناس توجد عندهم القسوة؛ بل لقد رأيت أنه مع نصحنا الدائم لجماعتنا بأن يتحلوا بالرفق والحب عند وعظ الآخرين ولا يقسوا، إلا أنهم يميلون إلى القسوة في كثير من الأحيان بسبب عادتهم حتى إن بعضهم يقولون لي لا يطيع الناس إلا بالقسوة، ويفسُدون بالرفق. فكيف يمكن القول –والحال هذه– إن كل إنسان يعتبر القسوة سيئةً ويكرهها؟ إنه قول مخالف للواقع، لأن كثيرا من الناس يميلون إلى القسوة ولا يجتنبونها وإن وُعظوا أو نُصحوا؛ ويرون أن الرفق ليس الطريقة المثلى، بل إن إصلاح الدنيا ممكن بالقسوة فقط.

وكذلك بعض الناس لا يعتبرون السرقة سيئة، وبعضهم لا يعتبرون الكذب سيئا، وبعضهم لا يعتبرون القتل سيئا، فلو فسرنا قوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ بأن كل إنسان يكره السرقة أو الكذب أو القتل أو غيرها من الجرائم لكان قولا باطلا، لأن كثيرا من الناس لا يعتبرونها أفعالاً شنيعة. أو خُذوا مثلاً أكل

اللحم، فإن كثيرا من الناس -إضافةً إلى المسلمين- لا يرون في أكل اللحم أي سوء، وعلى النقيض نجد آخرين يعتبرونه إثما كبيرا، ويكرهونه بحيث إنهم يتقيأون لو تحدثت أمامهم عن أكل اللحم، دَعْكَ أن تأكله أمامهم. كان في جماعتنا أخ أسلم من السيخ، واسمه سرداد فضل حقّ، وعاش مسلما سنوات طويلة، وبلَّغ الإسلام بين الآخرين بفضل الله تعالى. لقد ظلّ يكره أكل لحم البقر كراهة شديدة لسنوات طويلة. وربما زالت كراهيته فيما بعد، ولكن في سنوات إقامته في قاديان كان شديد الكراهية للحم البقر. أتذكر جيدا أنه كان مقيمًا في دار الضيافة هنا مرة، فقرر بعض الإخوة بمن فيهم بهاي عبد الرحيم وشيخ عبد العزيز وبعض الإخوة الآخرين أن يطعموه لحم البقر جبرًا على سبيل المزاح. فلما أخبروه بقرارهم هبّ من سريره، وأخذ يقفز من سرير إلى آخر لينفلت من أيديهم. ولا أزال أتذكر هذا المنظر جيدا. فلما لم يجد مناصا خرج من غرفته وأخذ يفرّ من غرفة إلى أخرى. وبينما هم يطاردونه تقيّأ بشدة، فخاف الإخوة وتركوه وقالوا لو أجبروه الآن على أكل لحم البقر فيكون هذا ظلما عظيما.

إذن، هناك كثير من الناس يكرهون أكل اللحم بشدة، وهناك آخرون كثيرون لا يقر لهم قرار بدون أكل اللحم، ومع ذلك لا نستطيع الجزم إن كان أكل اللحم من فطرة الإنسان أم أن عدم أكله هو من فطرته.. الواقع أن العقل الواعي شيء آخر تمامًا. إن الناس لم يدركوا حقيقة العقل الواعي Conscience مطلقا. إنما العقل الواعي هو إحساس الإنسان بأن بعض الأمور حسنة وبعضها سيئة، أما التمييز بين الحسن والسيئ حقًا فهذا ليس من عمل العقل الواعي، وإنما يتوقف هذا على عادة الإنسان، فكيفما كانت عادته كان إحساسه مماثلا تجاه شيء ما. على أية حال ليس في الدنيا إنسان يعتبر كل شيء حسنا أو كل شيء سيئا، بل إن كل إنسان سيقول يجب تجنُّبُ السيئ والعملُ بالحسن. وبغض النظر عما إذا كان هو يعتبر السيئ حسنا أو الحسن سيئا إلا أنه مزوَّد حتمًا بإحساس أن بعض الأشياء في الدنيا حسنة وبعضها سيئة، وعليّ أن أعمل ما هو حسن وأتجنب السيئ. وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.. أي أن كل إنسان يعتبر بعض الأشياء

سيئة وبعضها حسنة.. وهذا يعني أن كل إنسان مزود بما يستطيع به التمييز بين الحسن والسيئ، وبالتالي فلا بد من كائن يخبره ما هو حسن وما هو سيئ. هذا هو الدليل المكتمل الذي قدمه الله تعالى هنا للناس على وجوده، وليس بوسع أكبر ملحد ردّه. ولكني رأيت أن الناس عادةً لم يفهموا هذا الدليل كما ينبغي، فيقدمونه أمام الخصم بشكل ضعيف. لقد ذكر المسيح الموعود عليه السلام أيضا هذا الدليل في بعض كتبه، ومع ذلك يخطئ الإخوة في تقديمه، فعندما يتحدثون أمام الخصم بهذه الشهادة الموجودة في النفس اللوامة، يقدمونها وكأن كل شخص يكره الكذب أو القتل أو السرقة. لا شك أن العقل الباطن أو الفطرة عند أي إنسان يستنكر هذه الأمور، ولكن العقل الواعي عند كل إنسان لا يستنكرها، كما لا يمكن أن يعترف الإنسان بسوئها عند النقاش، وإذا اعترف به فبعد نقاش طويل، إذ لا بد من نقل نكارتها من عقله الباطن إلى عقله الواعي، وهذا الأمر ليس بوسع كل إنسان، بل يقدر عليه الماهر في فن النقاش.

كان الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام يحكي لنا أن سارقًا جاءه مرة للعلاج، فنصحه بترك هذه الخصلة الشريرة قائلا: أنت شخص قوي يجب أن تكسب بعرق الجبين بدلاً من هذا العمل الخسيس السيئ. ألا تستحي من ذلك؟ فقال اللص: حضرة الشيخ، لا أحد يكسب بعرق جبينه مثلنا؟ فإن الآخرين يعملون بالنهار، أما نحن فنكدح بالليل؛ نسهر في الليالي الباردة القارصة ببردها ومع أننا نتعثر هنا وهناك في الظلام ونخاف الموت ومع ذلك نمضي قدما في عملنا. فمن هو أكثر منا كدحًا وجهدًا؟ يقول حضرته رضي الله عنه فأدركتُ أن فطرته قد مُسخت وتشوهت كليا وأنّ عليّ أن أتبع أسلوبا آخر لإقناعه بشناعة السرقة. فغيّرتُ مجرى الحديث معه إلى أمور أخرى، ثم بعد هنيهة سألتُه: هلا أخبرتَني كيف تقومون بالسرقة وكم شخصا يشترك في العملية؟ قال: السرقة بحاجة إلى عدة أشخاص، فأولاً نضم إلى عصابتنا شخصًا يعرف البيت الذي نريد سرقته، فهو يدلنا على تفاصيل البيت من عدد غرفه ومكان أبوابها ونوافذها حتى ننفلت منها إذا خفنا القبض علينا خلال السرقة، كما يدلنا على صناديق المال والحليّ ولونها ومكانها في الغرفة وما إذا كان المال

مدفونا في زاوية من البيت وما إلى ذلك. ويكون معنا شخص ماهر في نقب الحائط بدون إحداث أي صوت حتى لا يتنبه إلينا أحد. وبعد أن يفرغ من نقب الجدار ينفصل عنا. ثم يتقدم شخص ثالث قد حفظ تفاصيل الدار، فيدخل ويحمل الحلي والأمتعة من داخل البيت ويوصلها إلى حائط الدار، حيث يكون شخص رابع يستلم منه الأموال والحلي ويجمعها في مكان. ويكون هناك شخص خامس يقف بعيدا عن البيت لمراقبة الأوضاع، فإذا كان هناك خطر نبهنا إليه. وبعد الفراغ من السرقة نأخذ المال إلى بيتنا، ونسلم الحليّ إلى صائغ يُذيب الحلي ويصنع منه سبائك ذهبية، لأننا لا نستطيع بيع الحلي كما هي خوفًا من أن يتعرف عليها أصحابها فيُقبض علينا. ويقول الخليفة الأول ﷺ: عندها قلت للسارق: فلو ذهبَ الصائغ هذا الذهب الذي جمعتموه بعرق الجبين فماذا تفعلون؟ فقال مِن فوره: لو أن هذا الخبيث سرق مالنا ضربنا عنقه، ولم نتركه حيًّا. قلتُ: كنتَ قبل قليل تقول: لا عيب في السرقة، والآن تقول سنضرب عنق الصائغ لو سرق المال! هذا يعني أن فطرتك تكره السرقة وتعتبرها عملاً يدل على خبث المرء وقلة إيمانه، وإلا فلماذا تغضب على الصائغ على عمل تقوم به أنت أيضا؟ فندم السارق. (حقائق الفرقان المجلد الأول ص ٣٧)

فالفطرة الممسوخة يمكن استثارتها أحيانًا، ولكن هذا ليس بمقدرة كل إنسان، وإنما هو من اختصاص المهرة في هذا الفن. بل الواقع أن الفطرة المشوهة الممسوخة لا تثار أحيانًا رغم بذل الجهود. فمثلا لو قلتَ للذين يعارضون أكل اللحم ويعتبرونه قتلاً للحيوان: تقتلون الديدانَ التي تتولد في جروحكم بالأدوية؟ ألا تفكرون عندها أنكم تقومون بقتل حيوانات؟ وإذا كان هذا من باب التضحية بالأدنى للذي هو خير، فلم تعترضون على أكل اللحم؟ فقد يدركون خطأهم بسماع قولك هذا وقد لا يدركون.

باختصار، إن الدليل الحقيقي الذي استعمله المسيح الموعود عليه السلام مرارًا هو أن في العقل الإنساني الواعي إحساسا بالخير والشر.. بمعنى أن كل إنسان –أيا كان دينه أو مذهبه– يملك إحساسا بأن بعض الأشياء حسنة وبعضها سيئ، ولكن هذا لا

يعني أن العقل الواعي يدرك ما هو حسن وما هو سيئ حقًا، إنما هذا من اختصاص علم الأخلاق. المراد من العقل الواعي conscience إنما هو أن كل إنسان مزوَّد بما يشعره بأن بعض الأشياء حسنة وبعضها سيئ، فإنك لن تجد في العالم كله شخصا واحدا يقول إن كل الأشياء حسنة أو كل الأشياء سيئة، كلا بل إنه يستحسن بعض الأشياء ويستنكر بعضها. فتجد السارق مثلاً يعتبر السرقة حسنة، ولكنه يستنكر القتل، أو القاتل يستحسن القتل ولكنه يستنكر إخلاف الوعد، أو الظالم يستحسن الظلم ولكنه يثور غضبا إذا كذب أمامه أحد، أو الكاذب يستحسن الكذب ولكنه يغضب إذا قتل أحد غيره. فكل إنسان ذي علاقة بأخلاق أو دين –هندوسيا كان أو مسيحيا أو مسلما أو سيخيا أو يهوديا أو عالما أو جاهلا أو كبيرا أو وضيعا– مزوَّد من عند الله تعالى بإدراك أن هناك أمورا يجب أن يقوم بها، وأمورا أخرى يجب أن يتجنبها. وإشارةً إلى هذه الكفاءة الفطرية في الإنسان قال الله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾. اعلم أن الله تعالى قد استعمل هنا المصدر و لم يقل أننا ألهمناه تفاصيل الفجور وفهمناه دقائق التقوى والطهارة، بل قال ألهمناه فجوره وتقواه، ومعناه: أن كل إنسان مزوَّد بحسّ الفجور والتقوى، وأن الله تعالى زوّده بما يُشعِره أن هناك ما هو نافع له، وهناك ما هو ضار به. وهذا هو الدليل الذي قدّمه المسيح الموعود عليه السلام في كتبه وهذا ما يبينه القرآن هنا، وهذا هو الدليل الذي ذكرته في بعض كتبي أيضا، ولكن الناس يخطئون ويخوضون في التفاصيل بلا داع، فيقدِّمون حسنات وسيئات معينة كمثال، مع أن هذا الدليل لا يعني أن كل إنسان يعلم ما هو الفجور وما هو التقوى عند الله تعالى، أو أن كل إنسان يعتبر الأمور الحسنة حسنة والسيئة سيئة فعلاً، وإنما الدليل الذي يقدمه الله تعالى هنا هو أن كل إنسان مزود بإحساس أن بعض الأشياء حسنة وبعضها سيئة، ثم بعد ذلك يختلف الناس؛ فمنهم من يستحسن أمرًا ومنهم من يستنكره، والواحد منهم يثني على شيء والآخر يذمّه. ولكن لا يهمنا هنا تفاصيل هذا الاختلاف، إنما يكفينا الأمر الواقع أن عند كل إنسان إحساسا بالخير والشر من ناحية، ومن ناحية أخرى يختلف الناس في تحديد الخير والشر اختلافا كبيرا، وهذا يستلزم وجود كائن

عنده إدراك تام بضرورات الإنسان، فيوجّه كفاءته الفطرية هذه توجيهًا صحيحًا، فيخبره ما هو خير له وما هو شر له فعلاً، وما يجب عليه العمل به وما يجب تفاديه.

لقد بينت هذا المفهوم لقوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ على ضوء المعنى العام لقوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾، أما إذا اعتبرنا قوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ إشارةً إلى النفس الكاملة في كل عصر فيكون المفهوم الثاني لقوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أن من سنة الله تعالى المستمرة أنه يلهم النفس الكاملة في كل عصر سبل الفجور والتقوى دائما. وفي هذه الحالة نقول إنه قد حُذِفَ مضاف هنا، والتقدير: "فألهمَها أمورَ فجورها وأمورَ تقواها".

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾

شرح الكلمات

زكّاها: زَكَى الشيءُ: نما. وزكّاه اللهُ: أنماه. وزكّاه: طهّره. (الأقرب، والتاج)

التفسير: أي أنّ مَن وَجَّهَ نفسه إلى الصراط السويّ متّبعًا هذا الإلهامَ فقد أفلحَ. علمًا أن إلهام النبي يكون مفصلا، وإلهام الفطرة يكون مجملا، والحديث هنا ليس عن الإلهام التفصيلي بل عن الإلهام المجمل، حيث بيّن الله تعالى أن الإنسان إذا اتّبع حقًا ما أودعنا فطرته من علم مجمل بالفجور والتقوى مما يُشعِره أن في الدنيا أشياء حسنة وأشياء ضارة، وإذا تجنب الضارّ منها وعمل بالحسن منها، وطوّر نفسه بحسب هذا الهدي الفطري، فإنه يفلح.. أي يحظى بوصال الله تعالى ويتمتع بإلهامه في النهاية. ونظرًا إلى هذا المفهوم سيُعتبر قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ إشارةً إلى تَلقّي الوحي الحقيقي، بينما يُعتبر قوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ إشارةً إلى الوحي المجمل الفطري الذي يتمتع به كل إنسان. وببيان هذه الحقيقة قد نبهنا الله تعالى أن مَن يدرك أنّ الله قد خلقه خلقةً معتدلة، سوف يسلك سبل الاعتدال بتفكُّر وتيقُّظ، ويتجنب السيئات مستعينا بما أودع الله فطرته مِن حس الفجور، ويتبع الحسنات مستعينا بما خلق الله فيه من حس التقوى، ويسعى لتطوير نفسه سعيًا دءوبًا، ويعيش متحليًا

بالأخلاق.. فإنه يتلقى إلهام الله ووحيه ويحظى بقربه تعالى في نهاية المطاف. ذلك أن من معاني التزكية الإنماء وأيضًا التطهير، وينطبق هنا معنى إنماء النفس والنهوض بها، إذ إن هذا الإنسان يستعين بما عنده من حس الفجور والتقوى ويصعد من مقام الفطرة إلى مقام الأخلاق، ثم في النهاية يصعد إلى مقام الذين يتلقون الإلهام والوحي من الله تعالى. هذا هو المعنى الأول لهذه الآية.

أما معناها الثاني فهو باعتبار (النَّفْس) نفسًا كاملة.. أي أننا حين نخبر النفسَ الكاملة بتفاصيل الفجور والتقوى لتعرفها الدنيا بواسطته، فالذي ينتفع عاملاً بتعاليم النفس الكاملة هذه ساعيًا لتزكية نفسه فإنه يدخل في زمرة المفلحين المقربين عند الله.. وكأنه يصبح بطاعة النبي واتّباع أحكامه مصداقًا لقوله تعالى ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾، فيصبح قمرَ النبيّ بحسب درجته المقدرة له نتيجة اتباعه للإلهام التفصيلي الذي ينـــزل على النبي. إذ الواقع أن كل مؤمن هو قمرُ النبي بحسب درجته، وينال الفلاح المقدر له نتيجة تمسُّكه بالتعاليم الكاملة التي يأتي بها النبي. وبتعبير آخر فإن قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ يتحدث عن الوحي الجليّ ، وأما قوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ فيتحدث عن الوحي الخفيّ، وذلك بحسب المعنى الأول للنفس. أما بحسب المعنى الثاني للنفس فقوله تعالى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ إشارةٌ إلى الوحي الجليّ الذي ينـــزل على النبي، وأما قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا﴾ فهو إشارة إلى الوحي الذي يتلقاه مَن يتبع النبي. وكأن النور الذي كان ينـــزل عليه من الخارج ينبع من داخله نتيجة عمله بتعاليم النبي.

وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

خابَ: خابَ خيبةً: لم يظفَرْ بما طلَب. وخاب سعيُه: لم ينجَحْ. (الأقرب)

دسّاها: دَسا يَدْسو دسوًا، ودَسا يَدْسى دَسْيًا: نقيضُ نما وزكا (المنجد).

دَسّاه: أغواه وأفسدَه (الأقرب). وقد قال البعض أن أصله دسَّسَها. ودسّ الشيء تحت التراب وغيره دسًّا: أدخلَه فيه وأخفاه. ودسَّسَه: مِثْلُ دَسَّه. وشُدِّد للمبالغة. (الأقرب)

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن مَن لم يؤمن بهذا الوحي فقد فشل، لأن الوحي الإلهي ينـــزل لتنمية القوى الفطرية، فمن رفضه فقد ظلَم نفسه وأهلكها.

الواقع أن التعليم الصحيح يكون مطابقا للفطرة الإنسانية دائما، والتعليم الذي يقتل العواطف الفطرية لا يكون تعليمًا حقًا، لأن الوحي إنما ينـــزل للنهوض بالنفس الإنسانية وليس لقتلها وتدمير قواها، وبناء على هذه الحكمة قد نهى القرآن الكريم عن الرهبانية، ومنع من أن يحرِّم الإنسان على نفسه الطيبات. إن الأديان الأخرى تقتل بعض قوى الفطرة الإنسانية، وتعتبر هذا القتل حسنة، ولكن الإسلام لا يستحسن ذلك، إنما يأمرنا بتسوية هذه القوى الفطرية التي زودنا الله بها مراعين الاعتدال في استعمالها. إنه لا يأمرنا بقتل الفطرة، بل يأمرنا أن نسعى للنهوض بالنفس من مقام الفطرة إلى الأعلى، لأن العلم الفطري مجمَل، والنجاة لا تُنال بالعلم المجمل. ومثال العلم المجمل قول أحد أن فلانا يقيم في لاهور، ولكن هذا لا ينفعنا شيئًا، وإنما ينفعنا أن نعرف اسم الحيّ والشارع أو الميدان الذي فيه بيته، لكي لا نعاني في البحث عنه، بل نصل إلى بيته بسهولة. فقوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ يعني أنكم إذا قمتم بتطوير قواكم الفطرية كان عوْنُ الله حليفكم، أما إذا ضيَّعتموها بكبحها فلن تفلحوا أبدا، إذ أُعْطيتُم هذه القوى الفطرية كسلاح، ومثالها كمثل شخص يريد السفر، فتزوده بعصا وسيف. إنك تعطيه العصا لأن السيف لا يعمل في بعض المواطن، وتعطيه السيف لأن العصا لا تنفع في بعض المواقف؛ فمثلا: إذا أراد قتل أفعى صادفته في الطريق، فلن ينفعه السيف، وإنما تنفعه العصا، أما إذا تصدّى له عدوّ فلن تنفعه العصا بقدر ما ينفعه السيف. أو إذا كان في طريقه أشواك مثلاً وأراد إماطتها فستنفعه العصا لا السيف. مما يعني أن العصا والسيف كليهما ضروري له، إذ ينفعه أحدهما في مكان وينفعه

الثاني في مكان آخر، ولو أنه رمى بأحدهما باعتباره شيئا عبثا فلا بد أن يعاني كثيرا عند حاجته إليه، وسيعرف أنه قد ارتكب خطأ فادحًا حين رمى بهذا السلاح. وبالمثل فإن كلّ ما خلق الله في الإنسان من قوى وكفاءات إنما هي لنفعه والنهوض به، ولو رمينا بأحد هذه الأسلحة وقتلنا إحدى هذه القوى باعتبارها لغوا وعبثا، أبعدنا أنفسنا عن غايتنا بأيدينا. وعلى سبيل المثال قد خلق الله في الإنسان قوة العفو والانتقام أيضا، وكلتاهما تساعده كثيرا في رقيه في الدنيا إذا ما استعملها في محلها، فحينًا يجب عليه أن يعفو، وحينا ينبغي أن ينتقم، إذ ليس العفو محمودا في كل موطن، كما ليس الانتقام محمودا في كل موطن، إن كلا منهما ضروري في محله المناسب، ولكنه لو سحق قوة العفو فيه أو اعتبر قوة الانتقام لغوًا ولم يستخدمها في محلها فقد عمل على فشله بنفسه. إنما يتحقق الفلاح إذا لم نسحق الفطرة، واستخدمنا كل ما أعطانا الله من قوى في محلها، وبقدر مناسب. فمن سحق فطرته وظن أنه أصبح خلوقًا أو الذي قضى على كفاءاته الفطرية وزعم أنه قد بلغ مقاما عاليا في الصلاح فقد ارتكب خطأ فاحشا جدا. ليست حسنةً قتل الفطرة، أو إضاعة ما خلق الله فينا من قوى وكفاءات، إنما الحسنة إيقاظ الفطرة وتطويرها واستعمال قواها بشكل سليم. هذا ما أشار الله إليه هنا مبيّنا أن من يقتل فطرته ويدمر قواها فلا يفلح أبدا.

أما نظرًا إلى المعنى الثاني للدسّ فستعني هذه الآية أن مَن طوّر نفسه مستنيرا بنوره الفطري أفلح.. أي حظي بنور الإلهام والوحي، أما الذي لا يفعل ذلك فقد خاب وخسر.. أي لم يحظَ بنور الوحي مباشرة ولا بطريق غير مباشر، لأن الفطرة إنما هي بمنـــزلة مرآة وهي التي تتلقى النور من الشمس وتعكسه، فمن دفن هذه الفطرة نفسها تحت التراب فكيف يتلقى النور؟ كلا، بل سيبقى أسيرا للظلمة في الدنيا ويرحل عنها في ظلام.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

طغواها: طَغا يَطْغو طُغْوًا، وطَغا يَطْغي طُغًى وطُغيانًا فهو واويٌّ ويائيٌّ، وبينهما اختلاف في المعنى، إلا أنهما يشتركان في معنًى، وهو: جاوز القدر والحدّ. ومِن معاني طغا يطغى: طغا الكافرُ: غلا في الكفر. وطغا فلان: أسرف في المعاصي والظلم. وطغا الماء: ارتفع. (الأقرب). وقد قال البعض أن طغوى يعني التجاوز في المعاصي، ولكن هذا المعنى يوجد في اليائي لا في الواويّ، والطغوى واويّ، فمعنى الطغوى: التجاوز عن القدر والحدّ.

التفسير: لقد ضرب الله هنا للكافرين مثال قوم ثمود؛ وقال انظروا إلى هؤلاء القوم، فقد جاءهم نور، ولكنهم -كما عرفتهم إذ كانوا من العرب أجدادكم- رفضوا هذا النور لتجاوُزهم الحدود.. أي أنهم خرجوا عن التسوية والاعتدال الذي أراد الله لهم، فلم يطيقوا التعليم المعتدل الذي جاءهم.

لقد بين الله تعالى هنا كيف يدسّ الإنسان نفسه، فأخبر أن هذا يتم بطريقيْن، فإما أن يخرج المرء عن القوة التي زوده الله تعالى بها، أو يتأخر عنها لأن تجاوُز الحدّ يكون بطريقين؛ فإما أن يتقدم عليه الإنسان أو يتأخر عنه، وتصرفه هذا يطمس نور فطرته، ويقضي على قواه وكفاءاته. ويخبرنا الله تعالى هنا أن هذا ما فعلت ثمود؛ حيث تجاوزوا الحدود في أعمالهم وتصرفاتهم. كان الله تعالى قد أنزل لهم منهجا وسطا، ولكنهم لم يسلكوا الطريق الوسط الذي هو جسر الصراط، والذي يجب على المؤمن السير عليه، بل كانوا يميلون عن جادة الاعتدال يمنة ويسرة بدلاً من المشي على الخطّ الوسطي.

إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٣﴾

التفسير: الموضوع الذي أشير إليه هنا نفس الموضوع المذكور في سورة الغاشية في قوله تعالى ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ حيث أخبر الله تعالى بذكر واقعة مماثلة أخرى أن الكافرين يخططون لمعارضة منظمة كما بدأت ثمود معارضة منظمة ضد نبيهم بتنصيب زعيم. فكأن الله تعالى يقول للكافرين هنا، إنكم ستضعون خطة لمعارضة الإسلام بعد فترة من الزمن كما أراد أشقى الناس من ثمود ليمنعوه من التبليغ، فتسعون للقضاء على الإسلام مستخدمين قوتكم الجماعية، ولكن اعلموا أنكم لن تنتصروا في هذه المواجهة، مثل قوم ثمود الذين خابوا وخسروا وأصبحوا هدفًا لعذاب الله تعالى.

فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٤﴾

التفسير: لقد ضرب الله هنا مثالا لطيفا، ولكن الناس لم يفهموا حكمته للأسف، وظنوا أن ناقة صالح كانت تتميز بعظمة خاصة، فلما عقرها قوم ثمود حلّ بهم عذاب الله تعالى. وقد حكى بعض المفسرين عنها حكايات عجيبة حتى قالوا أنها خُلقت من جبل و لم تكن كالنوق الأخرى (فتح البيان). فكيف ينـــزل العذاب على قوم لمجرد عقر الناقة ولا ينـــزل عليهم لإيذائهم نبيَّهم؟

الحقيقة أن صالحا عليه السلام قد بُعث في الجزيرة العربية، وكانت الناقة مَرْكَب العرب، فكان يخرج على ناقته للدعوة، وكان القوم لا يحبون أن ينشر دعوته بينهم ولكنهم ما كانوا يتصدّون له عليه السلام بطريق مباشر خوفًا أن تنتقم له عائلته، فاتبعوا لإيذائه طرقًا أخرى منها أنه عليه السلام إذا خرج على ناقته للدعوة في المناطق المجاورة فكان بعضهم يمنعونه من أن يسقي ناقته عندهم، وبعضهم كانوا يمنعونها من الرعي ليتوقف صالح عليه السلام عن أسفاره التبليغية عندما لا يجد الماء والعلف لناقته. فنصحهم عليه السلام قائلا: اتركوا ناقتي ترعى حيثما شاءت ولا تمنعوها الماء، لأن هذا يعيق

دعوتي. ولم يكن يقصد أنه يمكنهم أن يمنعوه من المجيء إليهم، ولكن إن جاءهم ناقته فعليهم أن يدَعوها تشرب من مائهم. ذلك أنه لم يكن بينهم وبين الناقة عداء، وإنما كانوا يعادون صالحا عليه السلام.. وكان اعتراضهم أنه يأتي إليهم على ناقته للدعوة مما يحدث ضجة في منطقتهم حيث يدعو الناس إلى طاعة أوامر الله تعالى، وهذا ما لم يطيقوه، فرأوْا أن السبيل لمنعه من الدعوة أن لا يدَعوا ناقته ترعى أو تشرب عندهم إذا خرج إليهم عليها. فسخط عليهم صالح عليه السلام وقال ﴿ناقةَ الله وسُقياها﴾.. أي أن ما تفعلون ليس صحيحا. دَعوا ناقتي لترعى وتشرب بحرية ولا تحولوا دون رعيها وشربها.. أي لا تمنعوني من الدعوة بِحِيلكم هذه.. واتركوني أبلّغ رسالة الله بحرية.

لقد رأيت بنفسي أنني حين أخرج أحيانا على الحصان وأمرّ ببعض القرى الأحمدية، يأخذ أهلها لجام حصاني ويوقفونه، فلا يعنون بذلك أن أنزل عن متنه وأعطيهم الحصان لكي يأخذوه لقريتهم، وإنما يقصدون بذلك أن أزورهم في قريتهم لبعض الوقت. وبالمثل لم تكن ثمود تريد إيقاف ناقة صالح عليه السلام، وإنما كانوا يريدون إيقافه من نشر الدعوة. فلما قال لهم خلّوا ناقتي ولا تتعرضوا لها بسوء، فما كان يقصد أن يتركوا ناقته ويفعلوا به ما يشاءون، إنما كان قصده ألا يمنعوه من التبليغ والدعوة. إنهم يمنعون ناقته من الشرب وهذا يعيق تبليغه دعوته ويحرم أهل تلك المناطق من الهدى.

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا

شرح الكلمات:

عقروها: عقَر الإبل: قطع قوائمَها بالسيف. (الأقرب)

التفسير: لم تُلقِ ثمود بالاً لنصيحة صالح عليه السلام، وكذّبوه وقطعوا قوائم ناقته، وبتعبير آخر: كشفوا له نيّاتهم علنًا أنهم لن يسمحوا له بنشر الدعوة في أي حال مهما قال لهم.

فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

دَمْدَمَ عليهم: دمدمَ الشيءَ: ألزقَه بالأرض. ودمدمَ الله عليهم: أهلكَهم. ودمدمَ فلان على فلان: كلّمه مغضبا. (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى إنهم لم يطيعوا رسولنا، فأنزلنا عليهم عذابا سوّاهم بالأرض ودمَّر صغارهم وكبارهم، فلم يُبق منهم أثرًا.

هذه الآية أروعُ مثال على بلاغة القرآن الكريم، إذ قال الله تعالى من قبل ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾.. أي أننا قمنا بتسوية الإنسان وجعلناه معتدل القوى، حيث تشهد نفس الإنسان على أنه بحاجة إلى نور السماء، والآن قال الله هنا إن ثمود لم يُقدِّروا هذه التسوية حقّ قدرها، و لم يطيعوا أوامرنا، فقمنا بتسويتهم بشكل آخر؛ فمحونا أثرهم من الدنيا. وهذه ذروة البلاغة، حيث استعمل الله الشيء الذي أنكروه بمعنى العذاب؛ فأخبر أننا قمنا بتسويتهم لأنهم أنكروا تسوية النفس، فدمرنا بلادهم وهدمنا مبانيهم وأهلكناهم بزلزال شديد لم يُبق منهم أثرا.

وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

عقباها: العقبى: جزاء الأمر؛ آخر كل شيء. (الأقرب)

التفسير: الضمير في قوله تعالى ﴿عُقْبَاهَا﴾ راجع إلى ﴿دَمْدَمَ﴾، والمراد أنه إذا حان نزول الدمدمة، واستحقّ قومٌ هلاكا شاملا، فلا يبالي الله بأقاربهم، أو لا يأبه بعواقب العذاب الوخيمة. ذلك أن القوم لا يهلكون كلهم أحيانا بل بعضهم ينجون، غير أنهم يعيشون بعد ذلك في ذل وهوان، ولكن الله تعالى يخبر هنا أنه إذا أراد إبادة قومٍ فلا يأبه بمعاناة من حولهم. إن استحقت أكثرية القوم غضب الله تعالى، يدمَّر معها الصامتون الذين لا يعارضون النبي ولا يؤيدونه أيضًا، وهذا لا

يعني أن الله ظلمهم، أو أنزل العذاب عشوائيا، بل إذا قضى الله باستئصال شأفة قوم، فإنما يقضي بعدل، فحيث إن البقية الصامتة لا يأبهون بعاقبتهم فلماذا يأبه الله بهم؟

ومن معاني هذه الآية أن على أهل مكة – الذين يعارضون نبيهم كما عارضت ثمود نبيها – أن يتذكروا أن الله تعالى سينـــزل عليهم عذابا عاما كما دمر ثمود بعذاب عام. لا شك أن ثمود هلكوا كأمة، بينما عاش أهل مكة بعد غلبة رسول الله ﷺ، ولكن لا اعتراض على ذلك، لأن الهلاك لا يكون ماديا في بعض الأحيان بل يكون دينيا. لقد هلكت ثمود هلاكا ماديا كلية، أما أهل مكة فهلكوا هلاكا دينيا، فلم يبق لدينهم وطقوسهم أي أثر.